سلسلة دراسات أسلوبية

جماليات سورة (ق)

دراسة أسلوبية بلاغية

تأليف

د/عبد الحميد هنداوي

الأستاذ بكلية دار العلوم – جامعة القاهرة



بسم الله الرحمن الرحيم

بين يدي البحث:

ثمة مزاعم لا أساس لها من الصحة أن القرآن الكريم قد قتل بحثًا، وأنه لم يعد مجالا للدراسات الفنية أو البلاغية بحجة أن القرآن الكريم قد توفرّ عليه المفسرون القدامى والمحدثون وأولوه عناية فائقة لاسيما بلاغته ومعانيه وأساليبه، وقد كثرت الدراسات البلاغية في ذلك وتعددت بما لا يدع مجالا للزيادة عليها.

ونحن نشكك فى هذه المقولة –بل نرفضها رفضًا قاطعًا– وهذا الرفض ليس عن هوى وعاطفة للقرآن الكريم بقدر ما هو نتيجة استقراء تام للدراسات البلاغية القديمة وما أسهمت به في الكشف عن جماليات النص القرآني.

وذلك أن المتصفح لأبواب علم البلاغة– حسب تقسيمه الذي استقر عليه على يد السكاكي إلى علومه الثلاثة المعاني والبيان والبديع– لا يكاد يجد فيها حديثا مفصلاً يتعمق دراسة الوسائل التعبيرية المكونة للنص الأدبي بدءا من الوحدات الصوتية (الفونيمات) ومرورًا بالصيغ الصرفية (المورفيمات) أو يقف بالدراسة المتأنية لاستجلاء الدلالة المعجمية لمفردات النص ومدى اتساقها مع طبيعة الغرض والفكرة وسياق النص الأدبي.

نعم، هناك إشارات سريعة وخاطفة في شروط فصاحة الكلمة في فن الفصاحة الذي جعلوه لصغره ووجازته كمقدمة لعلوم البلاغة، وليس علما مستقلاً بذاته[1].

---

(١) اللهم إلا محاولات بعض البلاغيين التي لم تصل إلى حد كبير من النضج والتعمق الأسلوبي

وقد كان من الممكن استثمار تلك المقولات في فن الفصاحة، خاصة وأنها تتعرض لبعض سمات الكلمة الصوتية من جهة تركيبها الصوتي وما يعرض لها بحسب ذلك من الخفة والثقل وصعوبة التركيب وغير ذلك.

ولكن للأسف الشديد وقفت تلك الدراسات عند هذا الحد، ولم يزد عليها المتأخرون شيئا، كما أن الدراسات البلاغية الحديثة قد اكتفت في الغالب بانتقاد تلك المقولات أو محاولة تصويبها دون استثمار تلك المحاولة أو الإضافة إليها وتعميقها.

كذلك فقد وقفت الدراسات البلاغية في استجلاء إمكانات الكلمة من الناحية الصرفية، وإثارة دلالات الصيغ المختلفة عند التفريق بين دلالتي كل من الاسم والفعل على العموم، دون محاولة استقصاء دلالات الصيغ الكثيرة المتعددة للاسم أو الفعل، اللهم إلا إشارات نادرة وخاطفة قلما توجد عند المنظرين للبلاغة، وأكثر ما توجد في كلام التطبيقيين لا سيما أصحاب التفسير البياني للقرآن الكريم على قلتهم وندرتهم.

ولا يكاد يختلف الحال كثيرا في النظر إلى الدلالات المعجمية للكلمة المفردة، ومحاولة استجلاء ظلالها وإيحاءاتها المختلفة في تشكيل الدلالة الفنية للنص الأدبي.

ومن ثم نستطيع أن نقرر مطمئنين أن البلاغة العربية- لا سيما الجانب النظري منها- قد ظلمت الكلمة المفردة من جهة النظر البلاغي إلى حد كبير، وليس المقصود أن نصف الكلمة المفردة بالفصاحة أو البلاغة خارج سياقها؛ فهذا أمر مفروغ منه؛ فالكلمة خارج السياق لا توصف بفصاحة ولا بلاغة؛ وإنما

بحسب طبيعة عصرها، وذلك كمحاولة الطيبي سنة ٧٤٣هـ في كتابه (التبيان في المعاني والبيان)، حيث جعل الفصاحة علما مستقلا قسيما للبلاغة، وليس مقدمة لها، ولا قسما منها، وقد بينت ذلك تفصيلا في تحقيقي للكتاب، طبعة مؤسسة نزار الباز- مكة، وفي رسالتي للماجستير عن الطيبي وجهوده البلاغية- ط مؤسسة نزار الباز.

المقصود هو الوقوف بالدراسة المتأنية أمام الطاقات الدلالية لهذه الكلمة داخل سياقها من كافة النواحي والمستويات (الصوتية والمعجمية والصرفية والنحوية والمقامية..) والأمر الذي نقرره لا يحتاج في إثباته إلا أن ننظر نظرة سريعة إلى مباحث علوم البلاغة الثلاثة ومقدمتها الفصاحة.

وإذا ما استثنينا الفصاحة بملاحظاتنا السابقة عليها، فلا نكاد نجد في العلوم الثلاثة ما يستدرك النقص الذي أشرنا إليه.

فمباحث علم المعاني كلها تتعلق بالإسناد والتركيب.

ومباحث علم البيان وإن كان بها نظر إلى الدلالة المعجمية للكلمة واستعمالها من جهة الحقيقة والمجاز؛ فإنها قد اقتصرت على مباحث البيان المعروفة المعدودة (التشبيه والاستعارة والكناية والمجاز)

أما الوقوف لاستجلاء ظلال الكلمة وإيحاءاتها إذا لم تكن تشبيها ولا استعارة ولا كناية ولا مجازا فلا تكاد تظفر فيه بشيء.

وعلم البديع قد يقف عند بعض السمات الصوتية كالسجع والجناس ونحو ذلك، غير أن استجلاء السمات الصوتية للكلمة لا يقف بالضرورة من الناحية الأسلوبية عند حدود مباحث علم البديع على كثرتها.

ومن ثم؛ فإننا نقول: إن البحث البلاغي لابد أن يتسع لدينا؛ ليشمل جميع المستويات اللغوية للكلمة والكلام على المستوى الصوتي والمعجمي، والصرفي والنحوي والمقامي..

وغني عن البيان أن نقرر أن دراسات البلاغيين القدامى وإن لم تكن باتساع الدراسة الأسلوبية في تحليل الكلمة والكلام فإنها لم تكن تضيق عن دراسة تلك المستويات جميعا حيث لم تكن الدراسة حينئذ تفرق بين ما هو أصوات وما هو صرف أو معجم أو نحو أو دلالة أو بيان..

فهذه الدراسات كانت تتواكب جميعها وتتلاحم في عمل الناقد أو

البلاغي وتصدر عن رؤية واحدة، ونظرة واحدة إلى اللغة في التحليل للنصوص وهي استجلاء طاقاتها الكامنة على جميع المستويات اللغوية المعروفة.

كما أننا نقرر كذلك أن الدراسات التطبيقية في كتب المفسرين للقرآن الكريم وشراح الحديث النبوي، قد استدركت كثيرا مما فات البلاغيين التنظيريين في ذلك؛ وإن كانت لا تقدم في ذلك بطبيعة الحال ما يصلح أن يمثل نظرية متكاملة.

والآن، وقد استنارت الدراسات البلاغية الحديثة بتلك الرؤى الأسلوبية المعاصرة التي تستجلي جميع بنى النص ومفرداته على كافة المستويات اللغوية، لابد من إعادة تحليل نصوصنا الأدبية التي نعتز بها في ضوء تلك الرؤية الأسلوبية المعاصرة، والتي لم تضق عنها تحليلات البلاغيين القدامى المتميزين كأمثال عبد القاهر والزمخشري ومن سار على دربهما.

ولذا، فقد حاولت في هذه الدراسة المتواضعة أن أقوم بمحاولة في هذا الجانب تستجلي بعض معطيات النص القرآني الكريم في سورة "ق" في كافة المستويات اللغوية التي سبق الإشارة إليها.

وقد قام منهج الدراسة الأسلوبية لهذا البحث على الأسس التالية:

١- تحديد الغرض العام للنص أو فكرته الأساسية.

٢- تقسيم النص إلى وحدات أو فقر تشتمل كل فقرة على فكرة أساسية، وتتلاحم هذه الأفكار فيما بينها لتشكل من خلال وحدتها الموضوعية موضوع النص وغرضه العام.

٣- تحليل الوسائل التعبيرية الموظفة في النص للتعبير عن أفكاره وذلك على مستوى المفردات والتراكيب لبيان مدى اتفاقها ومناسبتها للفكرة المعبرة عنها.

٤- تغطية كافة المستويات اللغوية الدلالية بالوقوف على أبرز مظاهر التطابق بين الفكرة والوسائل التعبيرية على كل من:

أ-المستوى المعجمي.

ب-المستوى الصوتي.

ج-المستوى الصرفي.

د-المستوى النحوي

٥-يتم التحليل على أساس النظر في الإجراءات الأسلوبية من جهة:

أ-اختيار وسائل تعبيرية معينة.

ب-العدول عن وسيلة تعبيرية إلى وسيلة أخرى.

ج-التكرار الأسلوبي لوسيلة تعبيرية على مدار النص(٢).

وقد تم النظر من جهة البحث في مدى تطابق ذلك الاختيار أو العدول أو التكرار ومناسبته لأغراض النص وأفكاره.

٦-كما تم تذييل البحث بخاتمة توضح أهم السمات الأسلوبية لهذه السورة الكريمة.

---

(٢) راجع الكلام على كل من الاختيار والعدول والتكرار في دراسة مفصلة عن الأسلوب ضمن بحث لي بعنوان (الإعجاز الصوتي للقرآن الكريم - دراسة نظرية تطبيقية) وقد فصلت الحديث عن تلك الإجراءات الأسلوبية في ذلك البحث بما يغني عن إعادته هنا.

هذا، والله أسأل أن يكون هذا البحث نافعًا لعباده، وأن يكون خطوة في سبيل تقدم الدراسات القرآنية والبلاغية، وأن يجزل لكاتبه المثوبة عليه في الدنيا والآخرة، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

عبد الحميد هنداوي

الجيزة — رمضان سنة ١٤٢٣هـ

نوفمبر سنة ٢٠٠٢م

المقصد العام والمقاصد الأساسية

نستطيع أن نحدد المقصد العام لهذه السورة من خلال القراءة الأولى لآياتها حيث تدور جميع هذه الآيات حول مقصد واحد هو:

إثبات البعث:

ويتكون هذا المقصد من عدد من المقاصد الفرعية التي تتلاحم فيما بينها في نسيج واحد للدلالة على هذا المقصد العظيم.

وذلك حيث تبدأ السورة بتقرير البعث والجزاء وتأكيده عن طريق أسلوب القسم في أول السورة، ثم تقرير تعجب الكافرين من نذارة النبي ﷺ لهم باليوم الآخر، وإجابتهم عن هذا التعجب إجابة مجملة، مع بيان حقيقة حالهم وما هم فيه من الضلال والاضطراب بسبب تكذيبهم بالحق مع وضوحه وبيانه لهم.

ثم تنتقل الآيات بعد ذلك للرد التفصيلي على حجج المشركين ومزاعمهم الباطلة بذكر الآيات الدالة على قدرة الله تعالى على البعث، ومن ثم تطوف بهم الآيات بالنظر في بناء السماء وزينتها وإحكام صنعتها، والنظر إلى الأرض كيف مدّها الله تعالى وأوسع أرجاءها، وألقى فيها الجبال مثبتات لها، وأنبت فيها من كل زوج بهيج.

وكيف أنزل من السماء ماءً عميم النفع والخير والبركة أنبت به الجنات والحدائق وسائر صنوف الحبوب والنباتات، وكيف أخرج به النخل باسقات لها طلع نضيد، ثم كيف أحيا به الأرض بعد موتها.

وفي ختام هذه الآيات يقرر الحق سبحانه أن البعث إحياء العباد بعد موتهم لا يختلف عن إحياء الأرض بعد موتها، وإخراجهم من الأرض بعد موتهم لا يختلف عن إخراج النبات في شيء.

ثم تنتقل الآيات بعد ذلك إلى ترهيب الكافر من التمادي في غيّه بتكذيب

البعث وذلك ببيان حال المكذبين بالبعث من الأمم السابقة، وكيف حل بهم الوعيد والعذاب لما كذبوا ما جاءت به الرسل. كما تعمد إلى تخويفه من رقابة الله المطلع على وساوس نفسه، وتكذيبه بالحق الذي فطر الله تعالى النفوس عليه، كما تخوفه كذلك من رقابة الملائكة له وتلقيها لألفاظه.

كما ترهبه الآيات كذلك من سكرة الموت ومباغتته للمرء فلا مفر ولا محيد، كما تخوفه كذلك من أهوال البعث ومواقفه وتصور للمرء حاله وهو محضر في هذه العرصات ومعه سائق وشهيد، حيث يكشف عن عينيه غطاء الغفلة وحجاب الشهوات فيرى الأمور على حقيقتها، وتزيد السورة في عرض مشاهد هذا اليوم وبتصوير حال الكافر فيها مع قرينه الذي أضله واختصامه معه، وقرينه الذي يسوقه ويحضره بين يدي مولاه، وتصور له حاله وقد صدر فيه القضاء الإلهي الذي لا يرد ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾، وتصور له حال جهنم وقد امتلأت ﴿وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾، وتستطرد الآيات هنا بذكر حال المتقين وجزائهم ومآلهم، وذلك من باب الترغيب في حسن موعود الله تعالى، وفتح باب الأمل للتوبة والإنابة والرجوع عن اللجاجة في الباطل.

وتكمل الآيات ما بدأته من الترهيب من التكذيب بالبعث ببيان إهلاك المكذبين من قبل وحث العباد على أخذ العظة والذكرى من ذلك.

ثم تنتقل بعد ذلك إلى عرض بعض شبه اليهود والمكذبين بالبعث حيث تعرض شبهة لليهود في ادعائهم أن الله قد خلق السماوات والأرض في ستة أيام فأصابه التعب والإعياء فاستراح في اليوم السابع، وقد عرضت الآيات لهذه الشبهة ودحضتها لأنها قد تكون شبهة يتعلق بها منكرو البعث، ثم هوّنت السورة على النبي ﷺ ما يلاقي من التكذيب وما يسمع من هذه اللجاجة ودعته إلى الصبر والتثبت والاستعانة على ذلك بذكر الله وتسبيحه، والتمهل بالكافرين ليوم لا ريب فيه.

ومن ثم تختم السورة بتصوير ذلك اليوم، وتوعد الكافرين بهذا المصير المحتوم، ويأتي هذا المقصد متداخلا مع المقصد السابق فتختم السورة بتصبير النبي ﷺ وتثبيته وتسليته بأن الله تعالى يعلم ما يقولون، وأن النبي ﷺ ما عليه إلا البلاغ لمن يخاف وعيد الله تعالى.

ومن ثم تتلاحم آيات السورة الكريمة للدلالة على المقصد العام وهو (إثبات البعث والإيمان باليوم الآخر والاستعداد له) وذلك من خلال هذه المقاصد السابقة.

ويمكننا أن نوجز هنا مقاصد السورة الكريمة في النقاط التالية:

١-إثبات البعث وتكذيب الكافرين به.

٢-دلائل قدرة الله تعالى على بعث الخلائق.

٣-التدليل على البعث بوسائل الترهيب والترغيب والأدلة العقلية المنطقية.

٤-تثبيت النبي ﷺ وتسليته عما يلاقي من تكذيب الكافرين ولجاجتهم.

﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ (١) بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ (٢) أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ (٣) قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ (٤) بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ (٥)﴾

المقصد الأول

(إثبات البعث وتكذيب الكافرين به)

في هذه الافتتاحية التي تأسر القلوب وتستولي على الأسماع والعقول تقدم السورة لموضوعها الأساسي الذي تدور حوله، وهو إثبات البعث.

ومن ثم فهذه المقدمة قد تضمنت عدة أمور هي:

١-جذب الأسماع للانتباه والتأمل.

٢-تقرير أمر البعث وتوكيده.

٣-تقرير تعجب الكافرين من نذارة الرسول ﷺ لهم بالبعث واستبعادهم له.

٤-الرد المجمل على استبعاد الكافرين للبعث.

٥-كشف حقيقة حال الكافرين وبيان سبب كفرهم واضطرابهم في أمر البعث.

وتتضافر الوسائل التعبيرية المختلفة على تقرير هذه الأمور وبيانها بأردع بيان، بحيث تتحقق المطابقة بينها وبين مقتضيات الأحوال من خلال أنظمة اللغة ومستوياتها المتعددة، وفيما يلي بيان ذلك.

أولاً: تحقق المطابقة على المستوى المعجمي:

ق: اختلف المفسرون في نظرتهم إلى الحروف التي تفتتح بها السور فمنهم من يكل علمها إلى الله تعالى، ويجعلها من المتشابه الذي لا يعلم تأويله إلا الله، فيقول في تفسير (ق) أو (ص) أو (الم)...إلخ (الله أعلم بمراده)[٣].

(٣) انظر على سبيل المثال تفسير الجلالين في هذا الموضع.

ومنهم من يرى أنها أحرف جيء بها للاستفتاح والتنبيه وإثارة الذهن والانتباه[(٤)].

ومنهم من يرى أن هذه الأحرف أنما جيء بها للتنبيه على أن القرآن من جنس الأحرف التي يتكلم بها العرب، ومع ذلك فهم عاجزون عن الإتيان بسور من مثله.

ويرشح أصحاب هذا الرأي لقولهم بأن هذه الأحرف قد اطرد بعدها ذكر القرآن الكريم كما في هذه السورة: ﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾ أو ﴿ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾ [ص:١]، أو ﴿الم (١) ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾ [البقرة:٢،١]، أو ﴿الم (١) اللَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ (٢) نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ [آل عمران:١-٣]، أو يأتي موصوفًا بأنه ذكر أو تنزيل أو غير ذلك من أوصاف القرآن وأسمائه مثل: ﴿الم (١) تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [السجدة:٢،١]، ومثل: ﴿كهيعص (١) ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا﴾ [مريم:٢،١] إلخ.

كما يدلل أصحاب هذا الرأي على ذلك بأن الحروف المذكورة في أوائل السور قد اشتملت على جميع صفات الحروف من الهمس والجهر، والتفخيم والترقيق، وغير ذلك، فكأنها أمثلة مما يتكلمون به، تدلل على أن القرآن من جنس هذه الأحرف وتقرر عجزهم عن مشابهته ومناظرته[(٥)].

---

(٤) انظر على سبيل المثال تفسير الزمخشري (١/١٣٨)، وابن كثير في تفسير (الم. البقرة) (١/٣٩،٣٨) حيث نقلا هذا القول عن بعض المفسرين.

(٥) انظر في تفصيل هذا المذهب تفسير الكشاف للزمخشري (١/١٣٨-١٣٩) ط مكتبة العبيكان.

ومنهم من يرى أن هذه الأحرف أسماء للسور، كما في الحديث: "كان يقرأ في صلاة الصبح يوم الجمعة الم. السجدة"(٦).

ومن المفسرين من يرى أن هذه الأحرف إنما هي إشارات ورموز لمعان تدل عليها بطريق الإيجاز والاختصار كقول الشاعر:

قلنا قفي لنا فقالت قاف   لا تحسبي أنا نسينا الإيجاف

تعني: وقفت.

وقال الآخر:

ما للظليم عال كيف لايا   ينقد عنه جلده إذا يا

فقال ابن جرير: كأنه أراد أن يقول إذا يفعل كذا وكذا فاكتفى بالياء من يفعل. وقال الآخر:

بالخير خيرات وإن شرًا فا   ولا أريد الشر إلا أن تا

يقول: وإن شرًا فشرٌ إلا أن تشاء، فاكتفى بالفاء والتاء من الكلمتين عن بقيتهما، ولكن هذا ظاهر من سياق. الكلام والله أعلم(٧).

ولا نريد أن نخوض هنا في سرد حجج كل فريق ودحضه للآراء الأخرى لأننا نرى أن هذه الأقوال كلها واقعة في دائرة الاجتهاد المأذون فيه، مع عدم وجود أدلة كافية للقطع بأحد هذه الآراء دون بقيتها، فهي جميعًا واقعة في دائرة الاحتمال.

وبدلا من محاولة ترجيح أحد هذه الآراء على غيرها فإننا سنقوم بمحاولة تطبيق هذه الآراء على هذه الحرف (ق) الذي افتتحت به هذه السورة الكريمة.

---

(٦) انظر تفسير ابن كثير (٣٦/١) في تفسير (الم) [البقرة :١].

(٧) انظر تفسير ابن كثير ص(٣٨/١)- المكتبة التوفيقية.

فنحن نرى أن البدء بهذا الحرف المبهم يدير الذهن في كل ما يتعلق به، وكل ما يمكن أن يكون إشارة إليه لاسيما في الأمر الذي يحتدم الصراع حوله، والموضوع الذي هو محل الخطاب بين المخاطَب والمخاطِب وهو أمر القيامة، وتترل القرآن بإثبات البعث والمعاد الذي يكذبون به.

فيحتمل الذهن أن يكون ذلك إشارة إلى القيامة، ويحتمل أن يكون إشارة إلى القرآن، لاسيما وقد بدئت السورة بذكره وختمت بذكره، قال تعالى في بداية السورة: **﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ(١)﴾** وقال في آخرها: **﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ(٤٥)﴾**.

كما يحتمل أن يكون إشارة إلى القفو والتتبع، فالله تعالى قاف أثرهم، يتتبعهم ليحشرهم ليوم لا ريب فيه[٨] أو هو أمر بقفوِ القرآن أي: اتباعه أو هو أمر بالوقوف عند ما جاء فيه والعلم به[٩].

كما يحتمل أن يكون ذلك إشارة إلى القول والمجادلة في أمر البعث والقيل والقال فيه، خاصة أن السورة قد اشتملت على كثير من الحوارات:

﴿فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ [ق:٢]

﴿وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ﴾ [ق:٢٣]

﴿قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلالٍ بَعِيدٍ﴾ [ق:٢٧]

﴿قَالَ لا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ﴾ [ق:٢٨]

﴿مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [ق:٢٩]

﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾ [ق:٣٠]

---

(٨) قلت: هذا اجتهاد مني وهو قريب مما قاله الألوسي في هذا الموضع.

(٩) انظر الألوسي- روح المعاني (١٧١/٢٦).

﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق:٤٥] --

ومما يرشح لذلك أن السورة تبدأ بحكاية قول الكافرين:

﴿فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ [ق:٢]

وتختم بحكاية قولهم كذلك:

﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق:٤٥]

كما يحتمل الإشارة إلى أن القيامة (حق)، والقرآن الذي أخبر بذلك (حق)، والرسول الذي جاء بذلك (حق)، ومن ثم تكرر لفظ الحق في هذه السورة، كما في ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ﴾ [ق:٥]

﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾[ق:١٩]

﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ﴾ [ق:٤٢]

ولا نريد هنا أن نثبت أو ننفي إشارة القرآن بهذا الحرف إلى شيء من هذه المعاني، بقدر ما نريد أن نقول: إن من إعجاز هذا الحرف هو أنه يثير الذهن ويحركه لاحتمال هذه المعاني جميعًا وهي كلها معان صحيحة ومقصودة ومتآزرة مع معاني السورة ومقاصدها وليست غريبة عنها.

كما قد يكون المراد منه هو التنبيه وإثارة الذهن تنويهًا بعظم ما يتلى وأهمية الأمر الذي هو محل إعراض وتكذيب من الكافرين، أو محل غفلة من المؤمنين، فالاستعداد للموت واليومِ الآخرِ الناسُ جميعًا في غفلة عنه، متشاغلين بحياتهم الدنيا، وإن تفاوتت درجة الغفلة بينهم إلا أنها تعمهم جميعًا كافرهم ومؤمنهم.

كما قد يكون المراد بهذا الحرف هو إثبات التحدي للكافرين، من جهة

أنه حرف من جنس ما يتكلمون به، وقد عجزوا عن الإتيان بمثله، ومع ذلك يكذبون بمجيئه من عند الله، ويرشح لذلك ذكر القرآن المجيد بعده.

كذلك فإن هذا الحرف اسم لهذه السورة، وهذا يتفق مع قول من يرى أن هذه الأحرف أسماء للسور التي بدأت بها[١٠]. وبعد ذلك كله نقول: كما قال بعض المفسرين: الله أعلم بمراده أيُّ ذلك هو المراد، وقد يكون ذلك كله مرادا ويكون ذلك من إعجاز القرآن في دلالة حروفه وكلماته على معان كثيرة كلها صحيحة متفقة مع سياقها ومقامها.

ولعل في هذا توفيقًا وجمعًا بين هذه الأقوال المتعددة في الحروف المفتتحة بها السور.

﴿وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾: "المجيد: ذو المجد والشرف على غيره من الكتب"[١١] **"والمجد: الكرم والشرف، والمجيد فعيل منه للمبالغة، وقيل: هو الكريم المفضال. وفعيل فيه أبلغ من فاعل فكأنه جمع معنى الجليل والوهاب والكريم. والمجيد: الرفيع العالي"[١٢]، و"المجد: السعة في الكرم والجلال"[١٣]، و"المجد ويقال المجادة: الشرف** الكامل وكرم النوع"[١٤].

وإذا كانت الدلالة المعجمية لمادة (مجد) تدور حول التناهي في الشرف والكرم والجلال؛ فإن هذا يأتي متناسبًا تمام التناسب مع هذا القسم بالقرآن، لأن القسم يوحي بعظمة المقسم به ويوحي بمجادته وقداسته فناسب وصف القرآن المقسم به بالمجيد. وهذا الوصف دلّ على مجد القرآن وشرفه وفضله على ما سواه

---

(١٠) وهو قول عبد الرحمن بن زيد بن أسلم انظر تفسير ابن كثير (٣٧/١).

(١١) الكشاف (٥٩١/٥) ط العبيكان.

(١٢) اللسان: مجد.

(١٣) الراغب: المفردات (مجد) ص(٤٦٣) ط دار المعرفة.

(١٤) الطاهر بن عاشور: التحرير والتنوير (٢٧٦/٢٦).

من الكلام وما سواه من الكتب، فليس في كلام الناس، ولا كلام الرسل، ولا ما أنزل الله تعالى من الكتب السابقة ما يفوق القرآن في فصاحته وبلاغته، وإعجاز نظمه، ودقة معانيه، وإحكام أحكامه وآياته، فقد أنزله الله تعالى ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة:٤٨].

ولذلك ناسب القسم بالقرآن ووصفه بالمجيد دون (الكتاب) لكون فضله وشرفه في كونه مقروءًا، متعبدًا بتلاوته، يُتحدى بنظمه ومعانيه المحكمة المفصلة والمبينة لكل شيء ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾[النحل:٨٩].

فالكتب كلها منزلة من عند الله، ولكنه يزيد عليها شرفًا ومجدًا في أنه قد وقع التحدي بنظمه، وذلك لا يكون إلا بقراءته وسماعه التي يتبين بها فصاحته وبلاغته.

وقوله تعالى: ﴿بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ (٢) أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾[ق:٢-٣].

بل: تفيد الإضراب عن كلام سابق. والكلام السابق على هذا الإضراب هو القسم المحذوف الجواب، والجواب مقدر بأن القرآن حق، أو الرسول ﷺ حق[١٥]، أو ما جاء به الرسول ﷺ من النذارة بالبعث حق[١٦]، وهو الأرجح، ويدل عليه ما بعده من ذكر البعث.

وهذا هو ما حدث الإضراب عنه، فكأن الكفار قد أعرضوا عن موجب ذلك القسم وهو الإيمان بما جاء به الرسول ﷺ من الإنذار بالبعث وأتوا بنقيضه فعجبوا أن جاءهم منذر منهم بذلك، ﴿فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ (٢) أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾.

(١٥) انظر التحرير والتنوير (٢٧٧/٢٦).
(١٦) الدر المصون (١٧٤/٦).

عجبوا: "أي حصل لهم العَجَب بفتح الجيم، وهو الأمر غير المألوف للشخص"[17] و"(العجب): روعة تأخذ الإنسان عند استعظام الشيء"[18]

ومن ثم جاء التعبير بالعجب مطابقًا لبيان استعظامهم لهذا الأمر واستنكارهم له، وادعائهم أنه أمر غير مألوف ولا معروف.

وعجبهم إنما كان من كون الرسول ﷺ بشرًا مثلهم، ومن كونه ينذرهم بالبعث والنشور[19].

وفي الحقيقة إنهم جاحدون معاندون للفطرة السليمة التي تقر بما جاءت به الرسل.

وقد بين القرآن عجبهم من الأمر الأول في غير ما موضع مثل قوله تعالى: **﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءهُمُ الْهُدَى إِلا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولا﴾**[الإسراء:٩٤] وقوله تعالى هنا: **﴿بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ﴾** "وعبر عن الرسول ﷺ بوصف "منذر" وهو المخبر بشرّ سيكون، للإيماء إلى أن عجبهم كان ناشئا عن صفتين في الرسول ﷺ إحداهما: أنه مخبر بعذاب يكون بعد الموت، أي مخبر بما لا يصدقون بوقوعه، وإنما أنذرهم الرسول ﷺ بعذاب الآخرة بعد البعث كما قال تعالى: **﴿إِنْ هُوَ إِلا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾** [سبأ:٤٦].

والثانية: كونه من نوع البشر"[20].

---

(١٧) انظر التحرير والتنوير (٢٧٨/٢٦).

(١٨) الوسيط: مادة عجب. "والعُجْبُ، والعَجَبُ: إنكاء ما يرد عليك لقلة اعتياده، قال ابن الأعرابي: العَجَب النظر إلى الشيء غير مألوف ولا معتاد، والتَّعَجُّبُ: أن ترى الشيء يعجبك تظن أنك لم تر مثله، والعجيب: الأمر تعجب منه". [وانظر اللسان مادة: عجب].

(١٩) انظر تفسير البحر المحيط (١٢٠/٨).

(٢٠) انظر التحرير والتنوير (٢٥-٢٧٩/٢٦)- الدار التوفيقية للنشر.

وبين هنا عجبهم من الأمر الثاني وهو النذارة بالبعث حيث قالوا: ﴿هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ(٢) أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾.

ومن ثم أتوا بلفظ (إذا) الدالة على تحقق الوقوع، للدلالة على تحقق الموت وثبوته. ووصفوا رجعهم بعد موهم واستحالتهم ترابًا بكونه بعيدًا، أي مستبعدًا في العقول غير متصور، وهذا إنما تحيله العقول بالنسبة لمقدور البشر لا بالنظر إلى مقدور الخالق المقتدر.

ولما كان قولهم هذا راجعًا إلى الكفر والعناد والتكذيب لذا وضع المظهر موضع المضمر ليسجل الكفر عليهم بقوله: ﴿فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ﴾.

عبر بـــ(قد) لإفادة تحقق علمه سبحانه.

وعبر بالنقص دون الإعدام أو الأكل أو الأخذ؛ ليفيد أن الأرض إنما تأكل من أجسادهم شيئًا فشيئًا وأنها لا تفنيهم تمامًا؛ لأنه يبقى من الإنسان جزء صغير يسمى عجب الذنب يحييه الله تعالى منه يوم القيامة.

قال ابن عاشور: "وعبر بـــ"تنقص الأرض" دون التعبير بالإعدام لأن للأجساد درجات من الاضمحلال تدخل تحت حقيقة النقص فقد يفنى بعض أجزاء الجسد ويبقى بعضه، وقد يأتي الفناء على جميع أجزائه، على أنه إذا صح أن عَجْب الذنب لا يفنى كان فناء الأجساد نقصًا لا انعدامًا"[٢١].

"وأَنْقَصَهُ لغة، وانتقصه وتنقّصه: أخذ منه قليلاً قليلاً"[٢٢].

(٢١) انظر التحرير والتنوير (٢٥-٢٦/٢٨٣).

(٢٢) انظر لسان العرب مادة: نقص.

ووصف الكتاب وهو اللوح المحفوظ الذي تسجل فيه مقادير كل شيء بأنه حفيظ، مناسب لما ذكر من نقص الأرض من أجسادهم فالحفظ في مقابل النقص الذي هو في معنى الضياع[٢٣]، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾[السجدة:١٠]

﴿قد علمنا ما تنقص الأرض منهم وعندنا كتاب حفيظ﴾

"التعبير يجسم حركة الأرض ويحييها، وهي تذيب أجسامهم المغيبة فيها، وتأكلها رويدًا رويدًا، ويصور أجسادهم وهي تتآكل باطراد وتبلى، ليقول: إن الله يعلم ما تأكله الأرض من أجسادهم، وهو مسجل في كتاب حفيظ، فهم لا يذهبون ضياعًا إذا ماتوا وكانوا ترابا. أما إعادة الحياة إلى هذا التراب فقد حدثت من قبل، وهي تحدث من حولهم في عمليات الإحياء المتجددة التي لا تنتهي[٢٤]"

ومن ثم حسنت هذه المطابقة لمطابقتها للمعنى، فبينت أن الله تعالى لا يعزب عن علمه مثقال ذرة من أجسادهم مهما غابت في غياهب الأرض.

وناسب التعبير بالكتاب ليدل على أن كل شيء من ذلك مكتوب ومسجل ومحفوظ في هذا اللوح المحفوظ.

ثم زاد في الدلالة على الحفظ في وصف هذا الكتاب بقوله: ﴿وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ﴾[ق:٤] فوصفه بالعندية المنسوبة إليه سبحانه كناية عن كمال الحفظ، لأنه يكون ثمة في حفظ الحفيظ سبحانه.

---

(٢٣)الحفظ: نقيض النسيان، وهو التعاهد وقلة الغفلة. والحافظ والحفيظ: الموكل بالشيء يحفظه. الحفظة: الذين يحصون الأعمال، ويكتبونها على بني آدم من الملائكة، وحفظ المال والسِّرَّ حفْظًا: رعاه. والتحفظ: قلة الغفلة في الأمور والكلام والتيقظ من السقطة، والمحافظة: المواظبة على الأمر. والمحافظة: المراقبة. والمحافظة والحِفَاظُ: الذَّبُّ عن المحارم. والحافظ: الطريق البيِّنُ المستقيم الذي لا ينقطع". [اللسان: حفظ].

(٢٤) في ظلال القرآن (٦/٣٣٥٨).

﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ﴾

﴿بَلْ﴾: إضراب عن التمادي في جوابهم لأنهم ليسوا أهلا للخطاب، وليسوا من يطلب دليلا للاهتداء، وإنما حقيقة أمرهم هو التكذيب بالحق عنادًا واستكبارًا رغم وضوح أدلته، فمرجع أمرهم إلى مجرد التكذيب والجحود.

﴿كَذَّبُوا بِالْحَقِّ﴾: عبر بالحق عن البعث المخبر به لتأكيد كونه حقًا لا مرية فيه، ولإظهار المفارقة بين مجيء الحق الواضح إليهم وتكذيبهم به رغم وضوحه وبيانه.

﴿لَمَّا جَاءهُمْ﴾: (لما) "حرف توقيت فهي دالة ربط حصول جوابها بوقت حصول شرطها فهي مؤذنة بمبادرة حصول الجواب عند حصول الشرط كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَضَاءتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ [البقرة:١٧]، وقوله: ﴿ فَلَمَّا جَاءهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ﴾ [البقرة:٨٩] وقد مضيا في سورة البقرة. ومعنى ﴿جَاءهُمْ﴾: بلغهم وأعلموا به.

والمعنى: أنهم بادروا بالتكذيب دون تأمل ولا نظر فيما حواه من الحق بل كذبوا به من أول وهلة فكذبوا بتوحيد الله، وهو أول حق جاء به القرآن، ولذلك عقب بقوله: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا﴾ إلى قوله: ﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا﴾.

فالتكذيب بما جاء به القرآن يعم التكذيب بالبعث وغيره"[٢٥].

﴿فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ﴾: عبر بـــ(في) ليدل على كمال اضطرابهم، فكأنهم منغمسون في الاضطراب، فهو لازم لهم ويحتويهم احتواء الظرف لما فيه.

ومن ثم فاستعمال (في) هنا استعارة تبعية"[٢٦].

---

(٢٥) انظر التحرير والتنوير (٢٥-٢٦/٢٨٤).

(٢٦) التحرير والتنوير (٢٥-٢٦/٢٨٤).

(مريج): المريج معناه المختلط: قال ابن زيد، وقال ابن عباس: المريج: المنكر، وقال مجاهد: المتلبس، المريج: المضطرب[٢٧]. وفي اللسان، مَرِجَ: قَلِقَ، مرج الأمر: التبس واختلط. وفي التتريل "فهم في أمر مريج" يقول: في ضلال.

وقال أبو إسحاق: في أمر مختلف ملتبس عليهم، مَرَجَ أمرَه: ضيَّعه. المرج: الفتنة المشكلة، المرج: الفساد. وفي الحديث: "كيف أنتم إذا مرج الدين" أي: فسد وقلقت أسبابه[٢٨].

وعبر بلفظ مريج[٢٩] ليدل على اضطرابهم وتخبطهم في الأمر إزاء ما جاءهم به النبي ﷺ من النذارة بالبعث، فتارة يصفونه بالسحر أو الشعر وتارة يصفونه بالكهانة، وتارة يصفونه بالجنون، وتارة يصفونه بأنه أساطير الأولين...إلخ[٣٠].

---

(٢٧) انظر المحرر الوجيز (١٥٦/٥).

(٢٨) انظر لسان العرب مادة: مرج.

(٢٩) يقال مرج الخاتم في الإصبع إذا تحرك واضطرب. انظر الكشاف للزمخشري (٤/).

(٣٠) تفسير النسفي (٤/٣) صـ ١٧٦. "قال صاحب الظلال: يكشف عن حقيقة حالهم، التي تنبعث من تلك الاعتراضات الواهية، ذلك أنهم تركوا الحق الثابت، فمادت الأرض من تحتهم، ولم يعودوا يستقرون على شيء أبدًا ﴿بل كذبوا بالحق لما جاءهم فهم في أمر مريج﴾ وإنه لتعبير فريد مصدر مشخص لحال من يفارقون الحق الثابت، فلا يقر لهم من بعده قرار إن الحق هو النقطة الثابتة التي يقف عليها من يؤمن بالحق فلا تتزعزع قدماه، ولا تضطرب خطاه؛ لأن الأرض ثابتة تحت قدميه لا تتزلزل ولا تخسف ولا تغوص. وكل ما حوله -عدا الحق الثابت- مضطرب مائج مزعزع مريج، لا ثبات له ولا استقرار، ولا صلابة له ولا احتما، فمن تجاوز نقطة الحق الثابتة زلت قدماه في ذلك المضطرب المريج وفقد الثبات والاستقرار، والطمأنينة والقرار، فهو أبدًا في أمر مريج لا يستقر على حال. ومن يفارق الحق تتقاذفه الأهواء وتتناوحه الهواجس، وتتخاطفه الهواتف، وتمزقه الحيرة وتقلقه الشكوك، ويضطرب سعيه هنا وهناك، وتتأرجح مواقفه إلى اليمين وإلى الشمال، وهو لا يلوذ من حيرته بركن ركين ولا بملجأ أمين، فهو في أمر مريج. إنه تعبير عجيب، يجسم خلجات القلوب، وكأنها حركة تتبعها العيون[٣٠]".[في ظلال القرآن (٣٣٥٨،٣٣٥٩/٦).

ثانيًا: تحقق المطابقة على المستوى الصوتي:

تشارك الظواهر الصوتية المختلفة الدلالة المعجمية في الإيحاء بمعانيها فتأتي مؤازرة لها، ومتسقة مع المعاني السياقية والمقامية لمقاصد الآيات ولنتأصل على سبيل المثال:

﴿ق﴾: الحروف التي يبدأ بها في مفتتح السور تشتمل على مدّ يسمى بالمد الحرفي المثقل، فيمد الألف في القاف ست حركات، وهذا المد كاف لإثارة الذهن، وجذب الانتباه، والاستحواذ على الأسماع لسماع ما يتلى.

كذلك فإن حرف القاف من الحروف المفخمة التي تملأ الفم خاصة وأنه يخرج من أقصى الحلق، وهذا التفخيم والامتلاء المصاحب لنطق الحرف يتناسب تمام المناسبة مع جو السورة وهول الحديث عن القيامة وأهوالها ومشاهدها.

كلمة (مَرِيجٍ) تصاحبها القلقلة في (الجيم) عند الوقوف عليها مع ما فيها من الجهر والشدّة، لتتآزر ظاهرة القلقلة فيها وكذلك في أغلب آيات السورة مع اضطراب هؤلاء الكافرين في اعتقاداتهم وتخبطهم فيها إزاء ما أنزل الله من الحق.

كلمة (حَفِيظ) وفي المقابل تخلو كلمة حفيظ من دواعي القلقلة لأن حرف الظاء ليس من حروف القلقلة، لتنتهي بثبات هذا الحرف وعدم قلقلته أو اضطرابه مما يتناسب مع معنى الحفظ الذي يُطْلَبُ فيه الثبات والاستقرار.

ثالثًا: تحقق المطابقة على المستوى الصرفي:

﴿الْمَجِيدُ﴾: وصف القرآن بالمجيد بصيغة (فعيل) الدالة على المبالغة

للدلالة على كمال مجده و"ذلك بأنه يفوق أفضل ما أبلغه الله للناس من أنواع الكلام الدال على مراد الله تعالى"[٣١].

أو فعيل فيه بمعنى مفعل، كبديع بمعنى مبدع، لكن في مجيء فعيل وصفًا من الإفعال كلام، وأكثر أهل اللغة لم يثبته[٣٢].

﴿مُنْذِرٌ﴾: التعبير باسم الفاعل دون (فعيل) لأنها دونها في الدلالة على الفعل.

لأن المقصود أنهم قد عجبوا بمجرد بدء الرسول في إنذارهم، فأبدوا التعجب والتكذيب لأول وهلة دون تأمل أو تدبر.

﴿فَقَالَ الْكَافِرُونَ﴾: التعبير بصيغة الفاعل بدل التعبير بالفعل ﴿فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ مثلا للدلالة على ثبوت الصفة لهم واستحقاقهم لها وكونها أصبحت سمة لهم.

﴿عَجِيبٌ﴾: التعبير بصيغة (فعيل) دلّ على اعتقادهم ثبوت العجب لهذا الأمر وكونه لازمًا له لا ينفك عنه.

﴿مِتْنَا وَكُنَّا﴾:جاء التعبير بالماضي للدلالة على تحقق الموت والصيرورة إلى التراب.

﴿رَجْعٌ﴾: أتوا بالاسم من الفعل اللازم (رَجْعٌ) دون ما سواه من المصادر كالإرجاع الذي يدل على وجود فاعل مرجع لعدم اعتقادهم به، وأتى بـــ(رجع) دون (رجوع) لأن المقصود نفي أدنى (رجع) أو (بعث) يمكن تصوره فأتى بالمصدر الأخف للدلالة على أقل ذلك.

---

(٣١) التحرير والتنوير (٢٥-٢٦/٢٧٧).

(٣٢) الألوسي (٢٦/١٧١).

﴿بَعِيدٌ﴾: عبر بالصفة المشبهة دون الفعل (بَعُد) للدلالة على ثبوت بعده، والمبالغة في استبعاده.

﴿تَنْقُصُ﴾: عبر بالمضارع للدلالة على أن نقص الأرض من أجسادهم مستمر متكرر يحدث شيئًا فشيئًا.

﴿حَفِيظٌ﴾: فعيل هنا إما بمعنى فاعل أي حافظ لما سجل فيه من الأشياء وأعدادها وآجالها وغير ذلك.

وإما بمعنى مفعول: أي محفوظ مما قد يعتري الكتب من المحو والتغيير أو السرقة ونحوه، وإذا كان سياق الآيات يدل على أنهم يستبعدون إحصاء الله تعالى لذرات أجسادهم بعد أن تغيب في الأرض، وذلك كما ذكر الله تعالى عنهم: ﴿وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [السجدة: ١٠] أي أئذا غبنا فيها بأن صرنا ترابًا مختلطًا بترابها، فكأن مثار الشك أو الجدل لدى هؤلاء الكافرين هو في كون الكتاب حافظًا لذرات أجسادهم؛ لا في كونه محفوظًا؛ ولكن آثر التعبير القرآني المعجز صيغة (فعيل) لكي يثبت كلا المعنيين: كونه حافظًا، وكونه محفوظًا؛ وذلك لأنه إذا كان المراد هو إثبات كونه حافظًا؛ فإن مما يتم به المعنى أن يكون الكتاب محفوظًا كذلك من التغيير والتبديل، إذ لا يتم الحفظ إلا بذلك.

رابعًا: تحقق المطابقة على المستوى النحوي:

﴿وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾: قسم بالقرآن، والقسم به كناية عن التنويه بشأنه؛ لأن القسم لا يكون إلا بعظيم عند المقسم فكان التعظيم من لوازم القسم.

وجواب القسم محذوف لتذهب نفس السامع في تقديره كل طريق ممكن في المقام فيدل عليه ابتداء السورة بحرف "ق" المشعر بالنداء على عجزهم عن معارضة القرآن بعد تحدّيهم بذلك، أو يدل عليه الإضراب في قوله: ﴿بَلْ عَجِبُوا

أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ﴾.

والتقدير: والقرآن المجيد إنك لرسول الله بالحق، كما صرح به في قوله ﴿يس (١) وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ (٢) إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (٣) عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [يس:١-٤]. أو يقدر الجواب: إنه لتزيل من رب العالمين، أو نحو ذلك كما صرح به في نحو: ﴿حـم (١) وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الزخرف:١-٣] ونحو ذلك والإضراب الانتقالي يقتضي كلامًا منتقلا منه والقسم بدون جواب لا يعتبر كلامًا تامًّا فتعين أن يقدِّر السامع جوابًا تتم به الفائدة يدل عليه الكلام.

وهذا من إيجاز الحذف وحسنه أن الانتقال مشعر بأهمية المنتقل إليه، أي عَدِّ عمَّا تريدُ تقديرَه من جوابٍ وانتقِلْ إلى بيان سبب إنكارهم الذي حدا بنا إلى القسم كقول القائل: دع ذا، وقول امرئ القيس:

فدع ذا وسلِّ الهم عنك بجَسْرَةٍ ذَمُولٍ إذا صامَ النهارُ وهَجَّرَا

وقول الأعشى:

فدع ذا ولكن رب أرض مُتيهة قطعتُ بحُرْ جُوْجٍ إذا الليل أظلما[٣٣].

قلت: كذا قدر بعضهم جواب القسم بأنه قسم على أن الرسول حق، والأولى تقديره بما دارت عليه مقاصد السورة من أولها إلى آخرها وهو أمر البعث والتكذيب به، وإثباته وبيان أهواله ومواقفه، وحال المكذبين به وغير ذلك مما فصلته السورة وسبق بيانه[٣٤].

---

(٣٣) التحرير والتنوير (٢٥-٢٦/٢٧٧-٢٧٨).

(٣٤) وممن ذهب إلى ذلك من المفسرين: الزجاج والمبرد والأخفش انظر المحرر الوجيز (٥/١٥٥)، والدر المصون (٦/١٤٧). وفي البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي (٨/١٢٠) والجواب محذوف يدل عليه ما بعده وتقديره: إنك جئتهم منذرًا بالبعث.

﴿بَلْ عَجِبُوا﴾:أسلوب خبري والتركيب مُصَدَّرٌ بحرف الإضراب بما يشعر بمجيء هذا الخبر للإنكار لعجبهم الشديد من البعث.

﴿أَنْ جَاءَهُمْ﴾: مجرور بـــ(من) المحذوفة، وحسن حذف (من) التي تدل على السبب والعلة، فجاءت الآية بإطلاق العجب، كأن عجبهم حاصل بمجرد مجيء النذير بلا سبب ولا علة قد وقفوا عليها بما يشعر أنهم قد بادروا إلى التعجب والتكذيب بلا تأمل ولا روية.

﴿مُنْذِرٌ مِنْهُمْ﴾: منهم صفة لمنذر، وأدخلت الصفة هنا بـــ(منهم) على (منذر) لأن لها مدخلا في تعجبهم، إذ إن عجبهم كان من أمرين هما: النذارة بالبعث، وكون النذير بشرًا منهم.

والإشارة بقولهم: ﴿هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ أفادت أن المشار إليه بالعجب في زعمهم مما يستدعي العجب والإنكار والإشارة إليه بالتعجب، وإشارتهم هنا هي إلى ما هو جار في مقام مقالتهم تلك من دعاء النبي ﷺ إياهم للإيمان بالرجع، أي البعث وهو الذي بينته جملة ﴿أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا﴾[٣٥] إلخ.

وفي البحر المحيط: "والإشارة بقولهم: ﴿هذا شيء عجيب﴾ الظاهر: أنها إلى مجيء منذر من البشر. وقيل: إلى ما تضمنه الإنذار. وهو الإخبار بالبعث، وقال الزمخشري: وهذا إشارة إلى المرجع. وفيه بعد[٣٦]"

وإفادة الإشارة هنا للتعجب هي كما في قول ابن الراوندي:

كم عاقلٍ عاقلٍ أعيتْ مذاهبهُ ... وجاهلٍ جاهلٍ تلقاهُ مرزوقا

هذا الذي تركَ الأوهامَ حائرةً ... وصَيَّرَ العالِمَ النَّحْرِيرَ زنديقا

ولذا أجابه الطيبي –رحمه الله بقوله:

---

(٣٥) انظر التحرير والتنوير (٢٥-٢٦/٢٨٠).

(٣٦) البحر المحيط (٨/١٢٠)، وانظر الكشاف (٤/١٩).

كم من أديبٍ فَهْمٍ قَلْبُهُ مُستكمل العقل مقلٌ عديمِ

ومن جهول مكثر ماله "ذلك تقديرُ العزيزِ العليمِ"[٣٧]

﴿أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ الاستفهام دال على الإنكار وبيان علة تعجبهم، فعبروا عن تعجبهم وإنكارهم بصنوف من الأدوات كالإشارة والاستفهام واستعمال اللفظ المخصوص بالدلالة عليه، والمبالغة بما يدل على تحقق فنائهم...إلخ. والمستفهم عنه في قولهم: ﴿أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ محذوف وتقديره: (أنرجع؟) وحذف المستفهم عنه للدلالة على شدة استبعادهم له حتى كأنهم لفرط استبعادهم له لا تسيغ ألسنتهم النطق به.

﴿ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ دلالة الإشارة هنا أيضًا لإفادة التعجيب والاستنكار بنحو ما بينا في قولهم: ﴿هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ وقول ابن الراوندي: هذا الذي ترك الأوهام حائرة

﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ أسلوب خبري مُصدَّر بقد لإفادة تحقيق العلم وثبوته ثبوتًا تامًا. وفي ذلك رد لقولهم: ﴿ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ فإن الشبهة قد حصلت لهم من ظنهم أن الله يمكن أن يغيب عنه ما تنقصه الأرض من أجسادهم أو يخفى عليه بعضه فكيف يقدر على جمعه وإعادته، فأبطل أصل شبهاتهم في ذلك.

"وفصلت الجملة بدون عطف لأنها ابتداء كلام لرد كلامهم، وهذا هو الأليق بنظم الكلام، وقيل: هي جواب القسم"[٣٨].

(٣٧) التبيان في المعاني والبيان للطيبي- تحقيق د/عبدالحميد هنداوي- المكتبة التجارية- مكة المكرمة (١٥٨/١).

(٣٨) انظر التحرير والتنوير (٢٥-٢٨١/٢٦).

﴿وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ﴾ أسلوب خبري تقدم فيه الخبر على المبتدأ وجوبًا، فأفاد أهمية المقدم والتفات السامع إليه وهو (عندية الله تعالى) لما فيها من الدلالة على تمام الحفظ.

فدل على الحفظ بأمور:

الأول: كونه عنده، وذلك كاف في الحفظ.

الثاني: كونه في كتاب، وهو أوثق لإحصائه.

والثالث: كونه حافظًا لما فيه، وهو ما دلت عليه (حفيظ) بمعنى (حافظ).

والرابع: كونه محفوظًا من التغيير والتبديل، وهو ما دلت عليه (حفيظ) بمعنى (محفوظ) وهو مشعر بوجود حفظة يحفظونه من الملائكة جريًا على سنة الله في الحفظ، وإن كان محفوظًا بحفظ الله تعالى بغير سبب ولا واسطة.

﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ (٦) وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٧) تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ (٨) وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ (٩) وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ(١٠) رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾

المقصد الثاني

(دلائل قدرة الله تعالى على بعث الخلائق)

لما ذكر الله تعالى تكذيب الكافرين بالبعث وأجابهم عن شبهتهم إجابة مجملة، قصد هنا في هذه الآيات إلى تفصيل أدلة البعث ببيان دلائل قدرته -سبحانه- في صفحة الكون تنبيهًا على تعامي هؤلاء الكافرين المكذبين عن رؤية الحق، وبيان أن كفرهم وإنكارهم ليس لعدم وضوح الأدلة وإنما هو الجحود والتكذيب رغم وضوح الأدلة وظهورها في صفحة السماء، ووجه الأرض، وما فيهما من آيات بديعة دالة على وجود قادر مقتدر.

ثم قصدت الآيات إلى تقديم دليل مباشر مستقل يعرض صورة واقعية وحية للبعث، وذلك في صور الإحياء المتكررة المشاهدة في خروج مختلف صنوف النبات والثمار من الأرض بما أنزل الله تعالى من السماء من ماء، ثم تتدرج لعرض أكبر مثال للبعث متمثلا في إحياء الأرض بعد موتها، فهو لا يختلف عن إحياء العباد بعد موتهم في شيء، حيث يُحيي اللهُ الخلائقَ يوم القيامة بهذه الطريقة نفسها حيث يترل ماء من السماء كالطّل أو الظّل فينبت منه الخلائق كما ينبت البقل، كما جاءت الآثار بذلك.

وتوظف الآيات جميع الوسائل التعبيرية لبيان هذا المقصد، ويمكننا أن نتأمل بعض الأمثلة الدالة على تحقق المطابقة بين هذا المقصد وهذه الوسائل.

أولا: تحقق المطابقة على المستوى المعجمي:

"قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ﴾ نظر اعتبار وتفكر، وأن القادر على إيجادها قادر على الإعادة[٣٩]"

(٣٩) الجامع لأحكام القرآن (٩/٦).

﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا﴾:عبر بالنظر دون الرؤية أو الإبصار مثلا؛ لأن النظر قد يراد به ما هو أكثر من الرؤية والإبصار، وهو الفكر والتأمل، فيقال نظر في الشيء إذا تأمله وتفكر فيه(٤٠)، كما قال تعالى- في الوليد بن المغيرة حينما تفكر فيما يقوله في شأن القرآن: ﴿إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (١٨) فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (١٩) ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ(٢٠) ثُمَّ نَظَرَ (٢١) ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ (٢٢) ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ(٢٣) فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلا سِحْرٌ يُؤْثَرُ (٢٤) إِنْ هَذَا إِلا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾[المدثر:١٨-٢٥](٤١).

-وعدّى النظر (بإلى) دون (في) لأنه إنما أراد منهم أدنى نظر، فلو أنهم توجهوا إلى السماء بأدنى نظر لرأوا الأدلة واضحة بينة، بخلاف التعبير بفي التي تدل على الاستغراق في المنظور إليه.

يقول الرازي: "ثم إنه تعالى كمَّل ذلك وجمَّله بقوله: ﴿إلى السماء﴾ و لم يقل في السماء؛ لأن النظر في الشيء ينبئ عن التأمل والمبالغة، والنظر إلى الشيء ينبئ عنه؛ لأن "إلى" للغاية فينتهي النظر عنده في الدخول في معنى الظرف، فإذا انتهى النظر إليه ينبغي أن ينفذ فيه حتى يصح معنى النظر"(٤٢).

-والتعبير بـ(فوقهم) للتنبيه على غباوتهم، وأن الأدلة فوق رءوسهم، أو للتنبيه على عنادهم وتماديهم في الكفر والتكذيب والجحود، فالنظر إلى الأدلة لا يكلفهم شيئا فهي فوق رءوسهم.

---

(٤٠) انظر مادة (نظر) في لسان العرب، تاج العروس.

(٤١)"وأما قوله هاهنا بلفظ النظر، وفي الأحقاف بلفظ الرؤية، ففيه لطيفة وهي أنهم لما استبعدوا أمر الرجع بقولهم: ﴿ذلك رجع بعيد﴾ استبعد استبعادهم، وقال: ﴿أفلم ينظروا إلى السماء﴾ لأن النظر دون الرؤية، فكأن النظر كان في حصول العلم فإنكار الرجع، ولا حاجة إلى الرؤية ليقع الاستبعاد في مقابله الاستبعاد".[مفاتيح الغيب (٤٢٤/١٤).]

(٤٢) مفاتيح الغيب (٤٢٤/١٤).

كما أن في التعبير بـــ(فوقهم) إيحاء بما يحتمله المعنى من أنها فوقهم في القوة والخلق والبنيان.

﴿وَزَيَّنَّاهَا﴾: "والتزيين" جعل الشيء زينا، أي حسنا أي تحسين منظرها للرائي بما يبدو فيها من الشمس نهارًا والقمر والنجوم ليلا.

"الزَّيْنُ: خلاف الشين، وجمعه أزيان، وتَزَيَّنَت الأرض بالنبات، وازَّيَنَت، وازْدانَت ازديانًا، وتزيَّنت وازَّيَّنتْ، وازْيَأنَّتْ وأزينَت، أي: حَسُنَت وبَهُجَت. والزينة: ما يتزين به. ويوم الزينة: العيد"[٤٣]. "وازَّيَّنتْ: أجود في العربية"[٤٤].

واقتصر على آية تزيين السماء دون تفصيل ما في الكواكب المزَّينة بها من الآيات؛ لأن التزيين يشترك في إدراكه جميع الذين يشاهدونه، وللجمع بين الاستدلال والامتنان بنعمة التمكين من مشاهدة المرائي الحسنة كما قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ [النحل:٦] في شأن خلق الأنعام في سورة النحل.

ثم يتفاوت الناس في إدراك ما في خلق الكواكب والشمس والقمر ونظامها من دلائل على مقدار تفاوت علومهم وعقولهم.

والآية صالحة لإفهام جميع الطبقات.

وجملة ﴿وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾ عطف على جملتي ﴿كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا﴾ فهي حال ثالثة في المعنى.

والفروج: جمع فرج، وهو الخرق، أي يشاهدونها كأنها كرة متصلة الأجزاء ليس بين أجزائها تفاوت يبدو كالخرق ولا تباعد يفصل بعضها عن بعض فيكون خرقا في قبتها.

---

(٤٣) انظر لسان اللسان: مادة (زين).

(٤٤) انظر المحكم والمحيط الأعظم: مادة (زين) بتحقيقنا.

وهذا من عجيب الصنع إذ يكون جسم عظيم كجسم كرة الهواء الجوي مصنوعا كالمفروغ في قالب.

وهذا مشاهد لجميع طبقات الناس على تفاوت مداركهم، ثم هم يتفاوتون في إدراك ما في هذا الصنع من عجائب التئام كرة الجو المحيط بالأرض.

ولو كان في أديم ما يسمى بالسماء تخالف من أجزائه لظهرت فيه فروج وانخفاض وارتفاع. ونظير هذه الآية قوله- في سورة الملك: **﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا﴾** إلى قوله: **﴿هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ﴾**[٤٥].

﴿والأرض مددناها﴾ مددناها أي: جعلناها مستوية ممتدة على عظم اتساع الأرض، إلى أعظم قدرته في ذلك.

﴿رَوَاسِيَ﴾: رسا الشيء يرسُو رسُوًّا وأرسى: ثبت، والرَّوَاسي من الجبال: الثوابت الرواسخ. ورَسَتْ قدمه: ثبتت في الحرب. وقدرٌ راسيةُ: لا تبرح مكانها لعظمها". الرسُوُّ: الثبات والاستقرار[٤٦] وهو دال على قدرة الله تعالى في تثبيت تلك الجبال على وجه الأرض وتداخلها معها بحيث تكون ثابتة مثبتة للأرض لا تهتز ولا تميد حال دورانها.

﴿كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾: (كل) تفيد التكثير، فتدل على كثرة تلك النعم الدالة على بديع الصانع وقدرة المقتدر. "وفائدة التكثير هنا: التعريض بهم لقلة تدبرهم إذ عموا عن دلائل كثيرة واضحة بينة"[٤٧].

والبهيج: "البهجة: الحُسن، والبهجة: حُسْن لون الشيء ونضارته. وقيل: هو في النبات النضارة، وفي الإنسان ضحك أسارير الوجه، أو ظهور الفرح البتة.

---

(٤٥) انظر التحرير والتنوير (٢٥-٢٦/٢٨٧).

(٤٦) انظر مادة (رسو) في المعجم والمحيط الأعظم ولسان العرب.

(٤٧) التحرير والتنوير (٢٥-٢٦/٢٨٩).

ورجُلٌ بُهِجٌ أي: مستبهجٌ بأمر يسرُّه. وبَهُجَ النبات فهو بهيج: حَسُن. قال الله تعالى: ﴿مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ وتباهج الرَّوْض إذا كَثُرَ نوره وقال:.

نُوَّارُه مُتَبَاهِجٌ يَتَوَهَّجُ

وقوله تعالى: "من كل زوج بهيج" أي من كل ضَرْب من النبات حسنٍ ناضرٍ. وتباهجَ النَّوَارُ: تضاحك. والابتهاج السرور. وبهجني الشيء وأَبْهَجَنِي: سرَّني. وأَبْهَجت الأرضُ: بَهُجَ نبَاتُهَا. ورجلٌ مبتهجٌ: مسرور"[٤٨].

هو ما يبعث البهجة في النفوس، فيسر به الناظرون، يقال: بهجه من باب منع، إذا سرّه، ومنه الابتهاج وهو المسرّة. أو هي ذات بهجة، أي ذات حُسن، كما قال تعالى: ﴿فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾ [النمل:٦٠]. وهذا يدل على دقة الصنع، مما يدل على القدرة الفائقة.

﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَى﴾[٤٩]: مصدر بصّره، والتبصير: "جعل المرء مبصرا وهو هنا مجاز في إدراك النفس إدراكًا ظاهرًا للأمر الذي كان خفيا عنها فكأنها لم

(٤٨) انظر لسان العرب: مادة (بهج).

(٤٩)البصير: هو الذي يشاهد الأشياء كلها ظاهرها وخافيها من غير جارحة. والبَصَر: حِسُّ العين والجمعُ: أبصار. وبَصُر: صار مبصرًا، وأبْصَره: إذا أخبر بالذي وقعت عينه عليه، وأبصرْتُ الشيء: رَأَيْتُهُ. ويقال: بِصرت وتبصَّرت الشيء: شبه رمقته، وأبصر الرجل: إذا خرج من الكفر إلى الإيمان. ومبصِرَة: واضحة. مبصَرَة أي: متبيِّنَةٌ تبصَرُ وتُرى. والمبصِرَة: المضيئة. والمَبْصَرة: الحُجَّة والاستبصار في الشيء. والبصر: نفاذ في القلب، والبصيرة: عقيدة القلب. والبصيرة: الفطنة. البصيرة: العبرة. والبصر: العلم، والتبصُّر: التأمُّل والتعرف. والتبصير: التعريف والإيضاح، والبصيرة: الثبات في الدين. وبصَّرَه الأمر تبصرةً وتبصيرًا: فهَّمه إياه. والبصيرة: الدرع. وكل ما لبس من السلاح فهو بصائر السلاح" [انظر اللسان مادة: (بصر)]. فأراد الله عز وجل منا أن نتحصن بالتفكر في خلقه لنصل إلى إفراده بالوحدانية والثبات عليها. كما أراد من الكافر أن يزيح الغطاء عن عينه فيبصر دلائل عظمة الله في الخلق ليعلم أنه واحد قادر على البعث والإعادة. "وخص هنا هذا الصنف بالذكر تشريفًا لأنها هي المنتفعة بالتبصرة والذكرى، وإلا فهذه المخلوقات هي تبصرة وذكرى لكل

تبصره ثم أبصرته. والذكرى اسم مصدر ذكر، إذا جعله يذكر ما نسيه. وأطلقت هنا على مراجعة النفس ما علمته ثم غفلت عنه[٥٠].

﴿عَبْدٍ﴾: أتى بلفظ العبد لدلالته على معنى الخضوع والتذلل[٥١] لله تعالى المنافي لما عليه هؤلاء الكافرون المكذبون من الجحود والعناد والتكبر، ليرشدهم إلى علّة عدم اهتدائهم وهي آفة الكبر الكامن في نفوسهم.

﴿مُنِيبٍ﴾ [٥٢]: الإنابة هي الرجوع، والمنيب هو الراجع، والمقصود هنا هو الرجوع إلى الله تعالى بالإقبال على طاعته والانقياد لأمره، مما ينافي ما هم عليه من الإعراض عن ربهم وعدم الاستجابة لرسله.

﴿مُبَارَكًا﴾: البركة: النماء والخير والزيادة[٥٣] والكثرة، ووصف الماء بأنه مبارك لأنه سبب النماء والخير، ولأن الله تعالى جعل منه كل شيء حي، فدل

بشر".[المحرر الوجيز (٥/١٥٦)].

(٥٠) انظر التحرير والتنوير (٢٥-٢٦/٢٩٠).وقال صاحب الظلال: (تبصرة تكشف الحجب وتنير البصيرة وتفتح القلوب وتصل الأرواح بهذا الكون العجيب وما وراءه من إبداع وحكمة وترتيب. تبصرة لتنفع بها كل عبد منيب، يرجع إلى ربه من قريب، وهذه هي الوصلة بين القلب البشري التي تجعل للنظر في كتاب الكون قيمة في الحياة البشرية، وهي التي تمهلها مناهج البحث التي يسمونها "علمية" في هذا الزمان، فتقطع ما وصل الله من وشيجة بين الناس والكون الذي يعيشون فيه، فالناس قطعة من هذا الكون لا تصح حياتهم لا تستقيم إلا حين تنبض قلوبهم على نبض هذا الكون. والمنهج الإيماني لا ينقص شيئا من ثمار "المنهج العلمي" في إدراك الحقائق المفردة. ولكنه يزيد عليه ربط هذه الحقائق المفردة بعضها ببعض، وردها إلى الحقائق الكبرى، ووصل القلب البشري بها).[في ظلال القرآن (٦/٣٣٥٩-٣٣٦٠)] بتصرف.

(٥١) يقال: طريق معبد أي: مذلل التَّعَبُّدُ: التذلُّل انظر مادة (عبد) في: لسان العرب.

(٥٢)"ناب الأمر نوبًا: نزل. والنائبة: المصيبة، وتركته لا نوب له: أي لا قوة له. يقال للمطر الجود: منيب، وناب فلان إلى الله: أي رجع وأناب إليه إنابة فهو منيب: أقبل وتاب ورجع إلى الطاعة. والإنابة: الرجوع إلى الله بالتوبة. [وانظر اللسان مادة: نوب].

ذلك على كثرة الخيرات والنباتات التي جعل الله تعالى فيها أرزاق العباد، فيدعوهم ذلك إلى تأمل قدرة الله تعالى، وتعلق القلوب به محبة وشكرا.

﴿فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ﴾: الجنّات: جمع جنة، وهي الحدائق المبتهجة من كل ما شجر بالكرم والفواكه والنخيل، وفي ذكر الجنات إيحاء بعظيم قدرته، وبديع صنعته سبحانه في إنبات هذا الخلق البديع من حبة ميتة، وأصل لا حياة فيه؛ فمن ثم عبّر بالإنبات للفت الأنظار لعقد المشابهة بينه وبين الإحياء والبعث.

﴿حَبَّ الْحَصِيدِ﴾: وصف الحب بأنه حصيد أي محصود "وفائدة ذكر هذا الوصف: الإشارة إلى اختلاف أحوال استحصال ما ينفع الناس من أنواع النبات، فإن الجنات تُستثمر وأصولها باقية والحبوب تستثمر بعد حصد أصولها، على أن في ذلك الحصيد منافع للأنعام تأكله بعد أخذ حبه كما قال تعالى: ﴿مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾[(٥٤)] (النازعات:٣٣).

﴿وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ﴾: "أي طوال شاهقات قال ابن عباس –رضي الله عنهما– ومجاهد وعكرمة والحسن وقتادة والسدي وغيرهم: الباسقات الطوال[(٥٥)].

وقوله تعالى: "(باسقات) يؤكد كمال القدرة والاختيار"[(٥٦)].

يقال: "بسق الشيء: يبسق بسوقًا: تم طوله وفي التتريل "والنخل باسقات لها طلع نضيد" الفراء: باسقات طولاً. وبسق النخل بسوقا: أي طال. وبسق على قومه: علاهم في الفضل"[(٥٧)].

---

(٥٣) انظر مادة (برك) في لسان العرب.

(٥٤) التحرير والتنوير (٢٥-٢٦/٢٩٢).

(٥٥) تفسير القرآن العظيم (٤/٢٢٢)- دار إحياء الكتب العربية وقال الزمخشري: أي طوالا في السماء (٤/١٩).

(٥٦) الرازي (٢٨/٤٢٧).

(٥٧) انظر لسان العرب: مادة [بسق].

فدل على تمام قدرته في خلقها شاهقة مرتفعة، كما دل على كمال اختياره في خلقه، حيث خلق الزروع القريبة من الأرض السهلة القطف، وخلق المنبطحة على الأرض والغائبة فيها، وخلق الباسقة العالية الضاربة بفروعها في السماء.

وهذا كله دال على تمام قدرته وأنه سبحانه لا يعجزه شيء، فذكر ذلك كله استدلالا على قدرته على البعث وامتنانًا على عباده بنعمه.

قوله تعالى ﴿لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ﴾ أي منضود بعضها فوق بعض في أكمامها في سنبله الزرع وهو عجيب، فإن الأشجار الطوال أثمارها بَارِزُها متميزٌ بعضها من بعض لكل واحد منها أصل يخرج منه كالجوز واللوز وغيرهما، والطلع كالسنبلة الواحدة يكون على أصل واحد(٥٨).

"والطلع: أول ما يظهر من ثمر التمر، وهو في الكُفُرَّى، أي غلاف العنقود.

والنضيد: المنضود، أي المصفف بعضه فوق بعض ما دام في الكُفُرَّى فإذا انشق عنه الكفرى فليس بنضيد. فهو بمعنى مفعول قال تعالى: **﴿وطلح منضود﴾** (الواقعة:٢٩) وزيادة هذه الحال للازدياد من الصفات الناشئة عن بديع الصنعة ومن المنة بمحاسن منظر ما أوتوه(٥٩).

﴿بَلْدَةً مَيْتًا﴾: عبر بالبلدة بدل الأرض، لأن بوادر الأرض وهلاكها يؤدي إلى إفناء جميع مظاهر الحياة بالبلدة والقضاء على الأحياء.

(٥٨) الرازي: مفاتيح الغيب (٤٢٨/١٤) دار الغد العربي.

(٥٩) التحرير والتنوير (٢٥-٢٦/٢٩٣).

وعبر بالميتة بدل البور أو التي لا نبات فيها للفت الأنظار إلى عقد المشابهة بين هذه الحال وحال البعث، ومن ثم عقب ذلك بقوله: كذلك الخروج.

﴿الْخُرُوجُ﴾: عبر بالخروج دون البعث والإحياء للدلالة على المشابهة والمساواة بين الحالين، فكما لا يستغرب إخراج النبات من الأرض ينبغي ألا يستغرب البعث لأنه إخراج الأجساد من الأرض، وإنبات أصلها المتبقي وإخراجه بالماء من الأرض كإنبات البقل سواء بسواء.

"فهي عملية دائمة التكرار فيما حولهم، مألوفة لهم، ولكنهم لا ينتبهون إليها ولا يلحظونها قبل الاعتراض والتعجيب، كذلك الخروج على هذه الوتيرة وبهذه السهولة، الآن يقولها وقد حشد لها من الإيقاعات الكونية على القلب البشري، ذلك الحشد الطويل الجميل المؤثر الموحي لكل قلب منيب. وكذلك يعالج القلوب خالقُ القلوب"(٦٠).

ثانيًا: تحقق المطابقة على المستوى الصوتي:

-تلتزم فواصل هذا المقطع بالانتهاء بحروف القلقلة بما لها من سمات الجهر والشدة والانفجار والاهتزاز وهي كلها سمات صوتية توقظ الذهن، وتحرك القلب، وتهز المشاعر، وتلفت العقول إلى تأمل تلك الدلالات والمعاني.

-تشتمل الآيات على كثير من المدود التي تجعل السياق رخيًّا ممتدًا بعيد المدى مما يناسب مقصود السورة في هذا المقطع وهو الدعوة إلى التأمل في صفحة الكون، والتماس أدلة قدرة القادر المقتدر في أرجاء هذا الكون

(٦٠) في ظلال القرءان (٦/٣٣٦١).

الفسيح، ومن ثم تكثر المدود الطبيعية والزائدة في أغلب كلمات الفقرة مثل (ينظروا- إلى- السماء بنيناها- زيناها- مالها- فروج- مددناها- ألقينا- فيها- رواسي- أنبتنا- فيها- بهيج- ذكرى- منيب- نزلنا- السماء- ماء- مباركا- فأنبتنا- جنات- الحصيد- باسقات- لها- نضيد- رزقا- للعباد- أحيينا- ميتا- الخروج).

-غير أن هناك ظاهرة صوتية عجيبة تمثل نوعًا من الإعجاز القرآني في هذه الآيات وهي:

انقسام فواصل هذه الآيات إلى فاصلتين:

الأولى: فاصلة متحدة خاصة بالبدء والختام في (فروج- الخروج) حيث التزمت الكلمتان المد بالواو والانتهاء بحرف الجيم.

الثانية: فاصلة متحدة في بقية الآيات تلتزم المد بالياء والانتهاء بحروف القلقلة كما في (بهيج- منيب- حصيد- نضيد).

فالفاصلة الأولى في البدء والختام قد اتحد فيها التزام المد بالواو قبل حرف نهاية الفاصلة.

أما الفاصلة الثانية التي اتحدت فيها بقية الآيات فقد التزم فيها بالمد بالياء قبل حرف نهاية الفاصلة.

وقد أدى ذلك إلى اختلاف الإيقاع في الفاصلتين والسر في ذلك — حسبما أدى إليه تأملي لهذه الآيات- أن الآية الأولى جاءت كالمقدمة للقضية وهي الدعوة إلى النظر في أدلة قدرة الله تعالى في الكون، والآية الأخيرة جاءت كالنتيجة التي يئول إليها النظر في هذه الآيات الظاهرة في صفحة الكون، فاتفقت فاصلة المقدمة مع فاصلة النتيجة باعتبارهم خلاصة المعنى في

هذا المقطع، مما حقق نوعًا من الانسجام الموسيقي بين البدء والختام، فكأنه سياج موسيقي يحيط طرفاه بأبعاد القضية.

واتحدت الفاصلة في بقية الآيات لاتحادها في الغرض وهو دلالتها على أمثلة دلائل قدرة الله تعالى في الكون، فهذه الأشياء كلها سواء في دلالتها على قدرة القادر المقتدر، فاتحدت في الإيقاع كما اتحدت في الجنس والغرض الذي سبقت لأجله.

ثالثًا: تحقق المطابقة على المستوى الصرفي:

﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا﴾: ينظروا: فعل مضارع دخل عليه (ألم) فحول دلالته إلى معنى المضي، فاجتمع في الفعل دلالة الماضي ودلالة المضارع الدال على الاستمرار فأورده بهذه الصيغة توبيخًا لهم للدلالة على اتساع الزمان لديهم في الماضي من الأزل للنظر في هذه الدلالات ولكنهم عن آيات ربهم معرضين **﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾**[يوسف:١٠٥].

-التعبير بصيغ الماضي في (بنيناها- زيناها- مددناها- ألقينا- أنبتنا- نزلنا- فأنبتنا- وأحيينا) دال على إيجاد هذه المخلوقات، ونصب هذه الأدلة من الأزل، مما يدل على سبق أدلة البعث على دعوتهم للإيمان به؛ فكان يستدعي المسارعة إلى الإيمان، والمبادرة إليه.

-التعبير بصيغة فعّل الدالة على التكثير في (زيّنّا- ونزّلنا) للدلالة على كثرة التزيين في الأول، وكثرة تنزيل الماء في الثاني.

فدل الأول على كثرة ما في جو السماء من النجوم والكواكب والأقمار والسحب...إلخ مما تتزين به صفحة السماء، ويدل على بديع قدرة الله تعالى وعظيم صنعه.

ودل الثاني على كثرة الخير المترتب على كثرة نزول الماء مما يدل على

جوده وكرمه وعظيم قدرته.

-**الجمع في فروج**: ناسب اتساع السماء وكثرة أرجائها فكأن المعنى أن السماء لعظمتها واتساعها وبعد أرجائها لو قدر أن يكون فيها شيء من الخلل والانفطار لكان فيها فروج كثيرة ولكنها خلت من ذلك.

كما أن الجمع (فروج) تحاشى ما يستهجن من كلمة (فرج) فاختيار الجمع أولى لذلك أيضًا.

- ﴿**بَهِيجٍ**﴾: "يجوز أن يكون صفة مشبهة، يقال: بَهُجَ بضم الهاء، إذا حسن في أعين الناظرين، فالبهيج بمعنى الفاعل كما دل عليه قوله تعالى: ﴿**فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ**﴾ [النمل:٦٠]. ويجوز أن يكون فعيلا بمعنى مفعول، أي: مُبْتَهَجٌ به. على الحذف والإيصال، أي: يسر به الناظر، يقال: بهجة من باب منع، إذا سره، ومنه الابتهاج: المسرة وهذا الوصف يفيد ذكره تقوية الاستدلال على دقة صنع الله تعالى وإدماج الامتنان عليهم بذلك ليشكروا النعمة ولا يكفروها بعبادة غيره، كقوله تعالى: ﴿**وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (٥) وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ (٦)**﴾[٦١] [النحل:٦،٥].

والذي نراه أن الإتيان بالصيغة الدالة على أكثر من معنى هو سمة من سمات الأسلوب القرآني الدالة على إعجازه لأن كلا المعنيين الذين يمكن حمل الصيغة عليها سواء الصفة المشبهة أو اسم المفعول كلاهما صالح للحمل عليه ومناسب للمعنى الذي سيقت الآيات لأجله، وقد سبق نحوه استخدام كلمة (حفيظ) بمعنى (حافظ- محفوظ)[٦٢].

---

(٦١) التحرير والتنوير (٢٥-٢٦/٢٨٩، ٢٩٠).

(٦٢) سبق بيان ذلك في هذا البحث، وانظر في هذه السمة بحثًا لنا بعنوان: (الإعجاز الصرفي

-وعلى هذا النحو أيضًا جاءت صيغة فعيل في (حصيد- نضيد) ومعلوم أن فعيل هنا بمعنى مفعول كما عليه المفسرون[٦٣].

غير أنهم لم يعللوا لسر العدول عن صيغة المفعول إلى صيغة فعيل، ونرى أن العدول إما لأجل الإيقاع، وإما لأجل انتفاع السياق بظلال صيغة فعيل الدالة على الصفة المشبهة بما توحي به من معاني الثبوت، ففي كلمة نضيد على سبيل المثال، تدل الصيغة على معنى المفعول (المنضود) كما تدل على معنى (فعيل) وهو الدلالة على الهيئة الثابتة لذلك الطلع المتناضد المتراكب على هذه الهيئة البديعة.

ولعل هذا من أسرار الإعجاز الصرفي للقرآن الكريم كما سبقت الإشارة إليه.

رابعًا: تحقق المطابقة على المستوى النحوي:

لما ذكر الله سبحانه وتعالى تعجب الكافرين من البعث وتكذيبهم به وذلك في قوله: ﴿بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ﴾ إلخ ناسب أن يتبع ذلك بالإنكار عليهم مشفوعًا ببيان الأدلة البينة الواضحة على دلائل قدرة الله تعالى الظاهرة في الكون مما يدل على تعاميهم عن الحق وإعراضهم عنه وذلك لوضوح أدلته وظهورها لكل ناظر. فقال سبحانه: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا﴾ أي حين كفروا بالبعث إلى آثار قدرة الله في خلق العالم"[٦٤].

للقرآن الكريم).

(٦٣) انظر الرازي (٤٢٧،٤٢٨/١٤)، والنسفي (٣-١٧٦/٤)، والمحرر الوجيز (١٧٥/٦)، والبحر المحيط (١١٩،١٢٠/٨) وابن كثير (٢٢٢/٤).

(٦٤) الزمخشري- الكشاف (٥٩٣/٥) ط العبيكان.

ومن ثم اشتملت الآيات على الأساليب والتراكيب التالية:

-أسلوب الاستفهام في قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ﴾ وهذا الاستفهام الغرض منه الإنكار عليهم في تكذيبهم للحق وإعراضهم عنه رغم وضوح أدلته وظهورها، وقيل بل الغرض تقريرهم بظهور تلك الآيات البينات أمام أعينهم بكونها منظورة لهم مشاهدة في كل حين، ومع ذلك فهم في غفلة وتعام عما تدل عليه من قدرة الله التامة الباهرة[٦٥].

" ﴿أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم﴾ الاستفهام للتقريع والتوبيخ، أي كيف غفلوا عن النظر إلى السماء فوقهم؟"[٦٦].

والأرجح أن الغرض من الاستفهام هنا هو الإنكار، وذلك لأن التقرير يقتضي أن يأتي الكلام بصيغة الخطاب لا الغيبة، لأنك إذا أردت أن تقرر شخصًا بشيء خاطبته، فإذا جاء الكلام للغائب كان الغرض هو التعجيب والإنكار فقد أعرض الحق سبحانه عن خطابهم إنكارًا عليهم وتعجيبًا للمخاطبين من فعالهم.

ومن ثم فالقول بالتقرير هنا لا فائدة فيه لأن المخاطب بهذا الأسلوب هم المؤمنون وهم غير منكرين ولا فائدة من تقرير غير المنكر.

ولو جاء الكلام هنا بصيغة الخطاب لصح أن يحمل الكلام على الغرضين معًا التقرير والإنكار، كما تقول لمن كسر جرّة أمامه بقدمه -مقررًا ومنكرًا عليه: (ألم تر الجرّة أمام عينيك؟).

---

(٦٥) ذهب الطاهر بن عاشور في تفسيره إلى احتمال أن يكون غرض الاستفهام هنا إما الإنكار أو التقرير، وقد ذهب إلى أن القول بالتقرير "أشد في النعي عليهم لاقتضائه أن دلالة المخلوقات المذكورة على إمكان البحث يكفي فيها مجرد النظر بالعين" التحرير والتنوير(٢٦/٢٨٦).

(٦٦) فتح القدير (٥/٧٢).

-والتعبير بإلى في تعدية الفعل (ينظروا) ليس لمجرد بعد المكان فهي على علوها مرئية لهم، وإنما هو لبعد المكانة أيضًا فهو إشارة إلى عظمتها.

-والتعبير بالظرف الذي وقع موقع الحال في قوله تعالى: (فوقهم): "والتقييد بالحال تنديد عليهم لإهمالهم التأمل مع المكنة منه إذ السماء قريبة فوقهم، لا يكلفهم النظر فيها إلا رفع رءوسهم"[٦٧].

-(كيف) اسم جامد مبني معناه: حالة. والتقدير: أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم حالة بنيناها وزيناها؟. أي: ينكر عليهم ترك النظر إليها والاستدلال بها على قدرته سبحانه مع عظم بنائه إياها وحسن تزيينه لها مما يستدعي النظر والتأمل في أسرارها.

-وجملة "مالها من فروج" عطف على جملتي "كيف بنيناها وزيناها" فهي حال ثالثة في المعنى"[٦٨].

فهنا أربعة أحوال هذه الثلاثة والظرف (فوقهم) وتعددت الأحوال المذكورة تنبيهًا على غباوتهم وإعراضهم وإقامة للحجج عليهم، فإن كل حال من هذه الأحوال تستدعي التأمل فكيف باجتماعها جميعًا.

﴿وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا﴾ أتى بالأسلوب الخبري معطوفًا على الإنشاء السابق والتقدير: (ومددنا الأرض) وعبر بالأسلوب الخبري في لفت الأنظار إلى قدرته تعالى في خلق الأرض بخلاف التعبير بالإنشاء في الدلالة على قدرته في بناء السماء، وذلك لأنه لما كانت أحوال الأرض نصب أعين الناس، وهي أقرب إليهم من أحوال السماء لأنها تلوح للأنظار دون تكلف لم يؤت في لفت أنظارهم إلى

([٦٧]) التحرير والتنوير (٢٨٦/٢٦).

([٦٨]) التحرير والتنوير (٢٨٧/٢٦).

دلالتها باستفهام إنكاري تتريلا لهم متزلة من نظر في أحوال الأرض فلم يكونوا بحاجة إلى إعادة الأخبار بأحوال الأرض تذكيرًا لهم.

-وقوله تعالى: "مددناها... وألقينا... وأنبتنا... ونزلنا... فأنبتنا" تعددت الأخبار عن الأرض وكلها مشاهدة في أحوالها كما تعددت الأحوال في وصف السماء للغرض نفسه، وهو التنبيه على غفلتهم وإعراضهم عن التأمل في الأدلة، فضلا عما فيه من الامتنان عليهم بتلك النعم الأرضية الموجبة للشكر.

-وقوله تعالى: "من كل زوج" زيدت (من) للتوكيد، كقوله تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ﴾ [النور:٤٣] إن المعنى: يترل من السماء جبالا فيها برد، وقد تقدم ذلك في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا﴾ [الأنعام:٩٩] في سورة الأنعام.

فالمقصود من التوكيد بحرف (من) تتريلهم متزلة من ينكر أن الله أنبت ما على الأرض من أنواع حين ادعوا استحالة إخراج الناس من الأرض، ولذلك جيء بالتوكيد في هذه الآية لأن الكلام فيها على المشركين ولم يؤت بالتوكيد في آية سورة طه"[٦٩] حيث قال ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى﴾[طه:٥٣].

-﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَى﴾: "علتان للأفعال السابقة معنى"، وإن انتصبا بالفعل الأخير، أو الفعل مقدر بطريق الاستئناف، أي: فعلنا ما فعلنا تبصيرًا وتذكيرًا، وقال أبو حيّان: منصوبان على المصدرية لفعل مقدر من لفظهما، أي: أبصرنا وذكرنا والأول أولى، وقرأ زيد بن علي (تبصرةٌ وذكرى) بالرفع على معنى: خلقُهما تبصرةٌ وذكرى"[٧٠]. وتعليل الله تعالى خلق هذه الآيات في السموات

([٦٩]) التحرير والتنوير (٢٦/٢٨٩).

([٧٠]) روح المعاني للألوسي (٢٦/١٧٦)، وانظر البحر المحيط (٨/١٢١).

والأرض بكونه تبصرة وذكرى، تعريض بهؤلاء المكذبين المعرضين عن التأمل في هذه الآيات والدلائل، ولفت لهم إلى ما تقتضيه تلك الآيات من التبصر والتذكر ببيان صريح مناسب لما هم فيه من الغباوة والبلادة.

وحذف متعلق "تبصرة وذكرى" ليعم كل ما يصلح أن يتبصر في شأنه بدلائل خلق الأرض وما عليها، وأهم ذلك فيهم هو التوحيد والبعث كما هو السياق تصريحا وتلويحا"[٧١].

وقوله: ﴿لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ﴾ خصّ العبد المنيب بالتبصر والتذكر تشريفًا للمؤمنين المنيبين، وتعريضًا بالكافرين المعرضين، وبيانًا لأسباب الهداية لطالبها وهي الإنابة إلى الله والخضوع له بالعبودية.

والجار والمجرور (لكل) يفيد حصول التبصر والتذكر لكل من أناب إلى الله تعالى، فرجع الأمر كله إلى الإنابة إلى الله تعالى والتوجه إليه، وفي هذا أيضًا تعريض بالكافرين وبيان أن سبب كفرهم ليس من جهة نقص الأدلة ولا عدم وضوحها، ولكن من جهة إعراضهم وعدم إنابتهم إلى ربهم.

﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ﴾.

-خبر معطوف على الخبر السابق، وتعدد الأخبار بهذه النعم مناسب لمقام المن والتذكير بالنعم.

-والتعبير بـ(نا) الدالة على الفاعل في (نزلنا- أنبتنا- مددنا- ألقينا- أحيينا) لتعظيم الفاعل سبحانه، وهو مناسب لمقام التدليل على القدرة.

-وذكر الجار والمجرور (من السماء) المتعلق بالفعل (نزلنا) رغم دلالة الفعل عليه -دال على مدى قدرته سبحانه لبعد المنزل منه وعظمته- أو أتى به

---

[٧١] التحرير والتنوير (٢٦/٢٩٠).

للتنبيه على غفلتهم لكون السماء فوق رءوسهم وقد سبق ندهم للنظر إليها، فتكون (ال) في السماء للعهد.

-وعبر بالحال (باسقات) ليلفت الأنظار إلى تلك الهيئة العجيبة في خلق النخيل، وهي من مظاهر قدرته سبحانه.

-"﴿رِزْقًا لِلْعِبَادِ﴾ مفعول لأجله لقوله: ﴿فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ﴾ إلى آخره، فهو مصدر، أي لنرزق العباد، أي نقوتهم.

"قد يقول قائل: هذا الاستدلال قد تقدم بقوله تعالى: **﴿وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج﴾** فما الفائدة في إعادته بقوله: **﴿فأنبتنا فيها جنات وحب الحصيد﴾**؟

نقول: قوله: **﴿فأنبتنا﴾** استدلال بنفس النبات، أي: الأشجار تنمو وتزيد. فكذلك بدن الإنسان بعد الموت ينمو ويزيد، بأن يرجع الله تعالى إليه قوة النشوء والنماء، كما يعيدها إلى الأشجار بواسطة ماء السماء"[٧٢].

والقول في التعليل به كالقول في التعليل بقوله ﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَى﴾ .

والعباد: الناس وهو جمع عبد بمعنى عبدالله، فأما العبد المملوك فجمعه العبيد. وهذا استدلال وامتنان.

"أو نصب على المصدر لأن الإنبات رزق فكأنه تعالى قال: أنبتناها للعباد"[٧٣].

"رزقا: يجوز أن يكون حالاً أي: مرزوقًا للعباد. أي: ذا رزق، و"للعباد": إما صفة، أو متعلق بالمصدر، وإما مفعول للمصدر، واللام زائدة أي: رزق العباد"[٧٤].

([٧٢]) مفاتيح الغيب (٤٢٧/١٤).

([٧٣]) الرازي (٤٢٨/١٤) وانظر المحيط (١٢٢/٨).

﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا﴾ عطف على ﴿رِزْقًا لِلْعِبَادِ﴾ عطف الفعل على الاسم المشتق من الفعل وهو رزقه المشتق لأنه في معنى: رزقنا العباد وأحيينا به بلدة ميتا، أي لرعي الأنعام والوحش فهو استدلال وفيه امتنان"[٧٥].

-﴿كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾ "مستأنفة لبيان الخروج من القبور عند البعث، كمثل هذا الإحياء الذي أحيا الله به الأرض الميتة"[٧٦]. علاقة هذه الجملة بما قبلها من الجمل السابقة هي علاقة التلخيص والإجمال لما سبق تفصيله، وهذا فن قلما يلتفت إليه يسمى (بالفذلكة)[٧٧]، ولذلك فهي جملة مستأنفة بعد نهاية الكلام السابق ولذا فقد وجب انفصالها.

([٧٤]) الدر المصون (١٧٦/٦).

([٧٥]) التحرير والتنوير (٢٩٣/٢٦-٢٩٤).

([٧٦]) فتح القدير (٧٣/٥).

([٧٧]) الفذلكة هي خلاصة الشيء ومحصلته، من قولهم كذا وكذا فذلك كذا وقد تجمع لي أمثلة منها في كلام الطيبي في شرح لمشكاة المصابيح وقد جمعت نماذجها التي أشار إليها في الحديث النبوي في فهارس الكتاب هنالك، فانظره إن شئت. ط نزار الباز- مكة المكرمة ضمن فهارس فنون البديع، وقد التفت الطاهر بن عاشور إليها في هذا الموضع كذلك فراجع تفسيره (٢٩٤/٢٦).

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ (١٢) وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ(١٣) وَأَصْحَابُ الأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ (١٤) أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ(١٥) وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ(١٦) إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ(١٧) مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ(١٨) وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ(١٩) وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ(٢٠) وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ(٢١) لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ(٢٢) وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ(٢٣) أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ(٢٤) مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ(٢٥) الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ(٢٦) قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلالٍ بَعِيدٍ(٢٧) قَالَ لا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ(٢٨) مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلامٍ لِلْعَبِيدِ(٢٩) يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلأتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ(٣٠) وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ(٣١) هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ(٣٢) مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ(٣٣) ادْخُلُوهَا بِسَلامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ(٣٤) لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ(٣٥) وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلادِ هَلْ مِنْ مَحِيصٍ(٣٦) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ(٣٧) وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ(٣٨)﴾

المقصد الثالث

التدليل على البعث بوسائل الترهيب والترغيب والأدلة العقلية المنطقية

تعد هذه الآيات امتدادًا للآيات السابقة في مقصدها الذي دلت عليه وهو التدليل على قدرة الله تعالى على بعث الخلائق؛ فالآيات الأولى ذكرت الأدلة على قدرة الله تعالى من خلال الآيات الكونية المشاهدة في خلق السماوات والأرض.

وهذه الآيات تقدم الأدلة على تلك القدرة ببيان قدرة الله تعالى على إهلاك المكذبين بالبعث، متضمنة مع ذلك مقصدًا آخر هو ترهيب هؤلاء المكذبين بعرض ما آل إليه حال أسلافهم فترتسم من خلال ذلك صورة العاقبة الوخيمة التي هي مآلهم لا محالة.

ومن ثم يتخلل آيات هذا المقطع عرض الدليل العقلي المنطقي القاطع في الدلالة على قدرة الله تعالى على البعث، وهو أن الإعادة أهون وأيسر من الإنشاء أول مرة.

ثم تكمل الآيات سياق الترهيب من التكذيب بالبعث، بتذكير الإنسان برقابة الله تعالى له ورقابة ملائكته له، حيث يحصون عليه كل لفظ وقول وهو سبحانه وتعالى أعلم بما توسوس به نفسه ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ (١٦) إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ (١٧) مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ(١٨)﴾.

ثم يستمر سياق الترهيب بتذكير الإنسان بالموت وسكراته ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ وعلى أسلوب الترقي والتدرج تنتقل الآيات إلى أعظم وأفظع صور الترهيب وهي مشاهد القيامة لتصور مآل

الكافرين وسوء عاقبتهم، بدءًا من النفخ في الصور إلى لحظة إلقائهم في جهنم واكتظاظها بهم، وتجادلهم فيها وإلقاء كل منهم التهمة على صاحبه. ثم تخفف الآيات من حدة سياق الترهيب بشيء من الترغيب ببيان جزاء المتقين المصدقين بالبعث، ثم تعود بعد ذلك الاستطراد لسياق الترهيب المسيطر على جو هذه السورة الكريمة ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِنْ مَحِيصٍ﴾ ثم تختم الآيات باستخلاص الدرس والعبرة من قصص الهالكين ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ ثم تختم بالتأكيد على قدرة الله تعالى التامة في خلق السماوات والأرض بما ينوه بقدرة الله تعالى على البعث.

ومن ثم يشتمل هذا المقطع الطويل على صور عديدة من الترهيب، تشكل ذلك المقصد الأساسي في هذه السورة الكريمة، الذي يتكون من عدة معان يمكن إيجازها في هذه النقاط:

١-الترهيب ببيان مآل المكذبين بالبعث من الأمم السابقة.

وذلك في الآيات (٣٦،١٣،١٢).

٢-عرض الدليل العقلي المنطقي على قدرة الله تعالى على البعث ممثلا في أن الإعادة أهون من الإنشاء في الآية (١٥، ٣٨).

٣-الترهيب من التكذيب بالبعث ببيان اطلاع الله تعالى على ما في نفس العبد، وتسجيل الملائكة لجميع أقواله.

٤-الترهيب بتذكير الإنسان بالموت وسكراته ورجوعه إلى الله تعالى.

٥-الترهيب بتذكير الإنسان باليوم الآخر وأهواله ومشاهده.

٦-الترغيب في الإيمان بالبعث ببيان جزاء المتقين المصدقين.

وتتضافر الوسائل الأسلوبية المختلفة في التعبير عن هذه المقاصد على كافة المستويات اللغوية بما يحقق المطابقة لهذه المقاصد.

أولا: تحقق المطابقة على المستوى المعجمي:

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ[1] وَثَمُودُ (١٢) وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ(١٣) وَأَصْحَابُ الأَيْكَةِ[2] وَقَوْمُ تُبَّعٍ﴾

(كذبت- كذّب- حقّ وعيد)

لما كان التكذيب إبطال للحق، جاء في مقابل ذلك قوله تعالى: ﴿حقّ وعيد﴾ ليطابق تكذيبهم. "وأصل الحق المطابقة والموافقة كمطابقة رِجل الباب في حَقِّه لدورانه على استقامة"[3].

والوعيد والتوعُّد: التهدد[4]. والوعد يكون في الخير، والوعيد في الشر.

ومن هنا تظهر المطابقة المعجمية للمعنى في قوله تعالى: (حق وعيد) أي جاء الوعيد مطابقًا وموافقًا كمطابقة رجل الباب في حقّه ولما كان (الحق ضد الباطل)[5] و(نقيضه)[6] والتكذيب إبطالا للحق ناسب التعبير بـــ(حقّ وعيد) في مقابل تكذيبهم بالبعث وبالوعيد عليه[*].

---

(1) "(وأصحاب الرس) فيهم وجوه: من المفسرين من قال: هم قوم شعيب، ومنهم من قال: هم الذين جاءهم من أقصى المدينة رجل يسعى، وهم قوم عيسى عليه السلام، ومنهم من قال: هم أصحاب الأخدود.

والرس: موضع نسبوا إليه، أو فعل حفر البئر، يقال: رسّ: إذا حفر بئرًا".[مفاتيح الغيب (٤٣٢/١٤)]

(2) " (وأصحاب الأيكة) قيل: هم قوم بعث إليهم شعيب عليه السلام غير أهل مدين كانوا يسكنون أيكة: وهي الغيطة، فسموا بها".[روح المعاني (١٧٧/٢٦) وانظر تفسير ابن كثير (٢٣١/٤)]

(3) المفردات للراغب الأصبهاني مادة (حقق) ص١٢٥- ط دار المعرفة.

(4) اللسان: (وعد).

(5) المفردات: (حقق).

﴿أَفَعَيِينَا﴾: يقال: "عيَّ بالأمر عيًّا وعيى وتعايا واستعيا:عجز عنه و لم يطق إحكامه"[7] و(عيينا) معناه عجزنا، وفعل (عَيَّ) إذا لم يتصل به ضمير يقال مُدغما وهو الأكثر ويقال: عَيِيَ بالفك فإذا اتصل به ضمير تعين الفك، ومعناه: عجز عن إتقان فعل و لم يهتد لحيلته. ويعدّى بالباء يقال: عيي بالأمر والباء فيه للمجاوزة. وأما أعيا بالهمزة في أوله قاصرًا فهو للتعب بمشي أو حمل ثقل وهو فعل قاصر لا يُعدّى بالباء.

فالمعنى: ما عجزنا عن الخلق الأول للإنسان فكيف تعجز عن إعادة خلقه[8].

([6]) اللسان: (حقق).

([5])(وهو دليل واضح على عدم صحة ما قاله بعض أهل العلم من أن الله يصح أن يخلف وعيده؛ لأنه قال: إنه لا يخلف وعده، و لم يقل إنه لا يخلف وعيده، وإن خلاف الوعيد حسن لا قبيح، وإنما القبيح هو إخلاف الوعد، وأن الشاعر قال:

وإني وإن أوعدته أو وعدته　　لمخلف إيعادي ومنجز وعدي

فهذا لا يصح بحال؛ لأن وعيده تعالى للكفار حق، ووجب عليهم بتكذيبهم للرسل، كما دل عليه قوله هنا: ﴿كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ﴾. وقد تقرر في الأصول أن الفاء من حروف العلة، كقوله: سها فسجد، أي: لعلة سهوه، وسرق فقطعت يده، أي: لعلة سرقته، ومنه قوله تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾ [المائدة:٣٨] فتكذيبهم الرسل علة صحيحة لكون الوعيد بالعذاب حق، ووجب عليهم... ، وبهذا تعلم أن الوعيد الذي لا يمتنع إخلافه، هو وعيد عصاة المسلمين بتعذيبهم على كبائر الذنوب؛ لأن الله تعالى أوضح ذلك في قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء:٤٨] وهذا في الحقيقة تجاوز من الله عن ذنوب عباده المؤمنين العصين، ولا إشكال في ذلك).[أضواء البيان (٤٢٨/٧، ٤٢٧ بتصرف].

([7]) اللسان:(عيا).

([8]) التحرير والتنوير (٢٦/٢٩٧).

واستنكار العيّ هنا وهو العجز والتعب فيه تهكم وسخرية بهؤلاء المنكرين قدرة الله على البعث، كما أن فيه ردًا كذلك على هؤلاء اليهود المدّعين أنه سبحانه وتعالى قد أصابه التعب والإعياء بعد خلق السماوات والأرض في ستة أيام فاستراح في السابع، وسيأتي مزيد رد ودحض لشبهتهم في نهاية السورة في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾.

﴿خَلَقْنَا﴾: آثر التعبير بالخلق هنا على الإيجاد والإنشاء ونحوهما لدلالة الخلق على الإيجاد من العدم مع استقامة الخلق واستوائه[9]، فيكون ذلك أدلّ على القدرة التامة في البدء والإعادة من باب أولى، وهذا أقوى حجة في إثبات البعث والترهيب من التكذيب به.

﴿تُوَسْوِسُ﴾: "والوسوسة في الأصل: هي الصوت الخفي، والمراد بها هنا: ما يختلج في سره وقلبه وضميره أي: نعلم ما يُخفي ويُكن في نفسه، ومن استعمال الوسوسة في الصوت الخفي قول الأعشى:

تسمع للحلي وساوسًا إذا انصرفت

فاستعمل لما خفي من حديث النفس"[10] "والوسوسة إنما تستعمل في غير عمل الخير"[11] الوسوسة هي: الخطرة الرديئة، وأصله من الوسواس، وهو صوت

---

(9) قال الراغب: "الخلق أصله التقدير المستقيم، ويستعمل في إبداع الشيء من غير أصل ولا احتذاء، قال: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [الأنعام:١] أي: أبْدَعَهُما، بدلالة قوله: ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾[البقرة:١١٧]، ويستعمل في إيجاد الشيء من الشيء نحو: ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [النساء:١] ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ﴾[النحل:٤] ﴿خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ﴾[المؤمنون:١٢] ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ﴾ [الأعراف:١١]] ﴿خَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ﴾ [الرحمن:١٥]، وليس الخلق الذي هو الإبداع إلا لله تعالى. (المفردات: خلق)(ص٢٩٦).

(10) فتح القدير (٥/٧٥).

الحلي، والهمس الخَفِيُّ. قال الله تعالى ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ﴾[طه:١٢٠]، وقال: ﴿مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ﴾ [الناس:٤] ويقال لِهَمْس الصّائِدِ وَسْواس[١٢].

ومن ثم يمكننا المقارنة بين هذه الكلمة ومرادفاتها التي يمكن أن تتناوب معها في مثل هذا السياق مثل (تتكلم- تتحدث- تُسر- تخفى..) لننتهي من خلال النظر في معاني وظلال كل كلمة من تلك الكلمات إلى تميز تلك الكلمة (توسوس) بمالها من مناسبة تامة لسياقها ومقامها لا تقوم به أي كلمة أخرى من مرادفاتها المتخيلة فالوسوسة هي الصوت الخفي غير المميز كصوت الريح أو الحلي مثلا، ومن هذا القبيل وسوسة الشيطان فهي خفية وغير واضحة ولا مميزة، بل تتسلل إلى النفس تسللا خفيًا لا يكاد يشعر بها المرء، بحيث لا يفرق بينها وبين نفسه.

ومن هنا تأتي مناسبة كلمة الوسوسة لسياقها لما تدل عليه من الخفاء وعدم التميز والوضوح، ومع دقتها وخفائها وعدم تميزها ووضوحها تظهر قدرة الله تعالى وسعة علمه في إحاطته بها ووقوفه عليها، ومما يلقي الرهبة ويعظم الخوف في قلوب العباد من تلك القدرة النافذة إلى شغاف القلوب حتى تتطلع على خطراتها ووساوسها الخفية التي قد يخفى على الإنسان نفسه معالمها ويصعب عليه تميزها مع كونها بداخله.

وهكذا يجد الإنسان نفسه مكشوفة مكشوفا لا يحجبها ستر، وكل ما كان فيها من وساوس خافتة وخافية معلوم لله، تمهيدا ليوم الحساب الذي ينكره ويجحده"[١٣].

([١١]) المحرر الوجيز (١٥٩/٥).

([١٢]) المفردات: وسوس (ص٨٦٩).

([١٣]) في ظلال القرآن (٣٣٦٢/٦).

﴿حبل الوريد﴾ "الحبل: العرق، شبه بواحد الحبال ألا ترى إلى قوله من الرجز:

كأنَّ وريدَيْه رِشاءَ اخُلُبِ"[١٤]

﴿الْوَرِيدِ﴾: عرق تحت اللسان، ﴿حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾: عرق تزعم العرب أنه من الوتين[١٥]، والوتين: "عرق في القلب إذا انقطع مات صاحبه"[١٦].

ومن خلال هذه الدلالة للكلمة ندرك مدى تميزها في الدلالة على فرط القرب، والقرب هنا كناية عن إحاطة العلم بالحال[١٧] لأن القرب يستلزم الاطلاع، وليس هو قربا بالمكان بقرينة المشاهدة فآل الكلام إلى التشبيه البليغ

---

(١٤) الكشاف: (٥/٥٩٦) (الرشاءان: حبلان للاستسقاء).

(١٥) اللسان: (ورد).

(١٦) اللسان: (وتن).

(١٧) قال ابن كثير: ﴿ونحن أقرب إليه من حبل الوريد﴾ يعني: ملائكته تعالى أقرب إلى الإنسان من حبل وريده إليه، ومن تأمله على العلم فإنما فر لئلا يلزم حلول أو اتحاد وهما منفيان بالإجماع ــ تعالى الله وتقدس ــ ولكن اللفظ لا يقتضيه، فإنه لم يقل وأنا أقرب إليه من حبل الوريد، وإنما قال: ﴿ونحن أقرب إليه من حبل الوريد﴾ كما قال في المحتضر: ﴿ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون﴾ [الواقعة: ٨٥] يعني ملائكته، وكما قال ــتبارك وتعالى: ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾ [الحجر:٩] فالملائكة نزلت بالذكر وهو القرءان بإذن الله عز وجل، وكذلك الملائكة أقرب إلى الإنسان من حبل وريده، بإقدار الله ــجل وعلا ــ لهم على ذلك. فللملك لمة من الإنسان، كما أن للشيطان لمة، وكذلك الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم".[تفسير القرآن العظيم (٤/٢٢٤).]

والذي يظهر لنا ــ والله أعلمــ أنه لا خلاف بين هذه الأقوال، فالملكان أقرب إلى الإنسان يسجلان ويحفظان عنه ما قدم من ظاهر الأعمال، والله ــعز وجل ــ أقرب إلى الإنسان من نفسه ومن الملكين، فهو يعلم حقيقة حاله وباطنه.

تشبيه معقول بمحسوس، وهذا من بناء التشبيه على الكناية بمنزلة بناء المجاز على المجاز.

"ومن لطائف هذا التمثيل أن حبل الوريد مع قربه لا يشعر الإنسان بقربه لخفائه، وكذلك قرب الله من الإنسان بعلمه قرب لا يشعر به الإنسان فلذلك اختير تمثيل هذا القرب بقرب حبل الوريد. وبذلك فاق هذا التشبيه لحالة القرب كل تشبيه من نوعه ورد في كلام البلغاء. مثل قولهم: هو منه مقعد القابلة ومعقد الإزار وقول زهير:

فهن ووادي الرس كاليد للفم.

وقول حنظلة بن سيار (وهو حنظلة بن ثعلبة بن سيار العجلي مخضرم):

كُل امرئ مصبَّح في أهلِه والموتُ أدنى من شراك نعلهِ"[18]

﴿يَتَلَقَّى﴾: "والتلقي: التلقن بالحفظ والكتبة"[19]

"والتلقي: الأخذ، أي: نحن أعلم بأحواله غير محتاجين إلى الحفظة الموكلين به.

التلقي: أخذ الشيء من يد معطيه[20] استعير هنا التلقي لإحصاء وتسجيل الأقوال والأفعال على الإنسان لتصوير دقة إحصاء الملكين لأقوال الإنسان وأفعاله، والآية تصور الملكين وكأنهما يتلقيان شيئًا ماديًا حسيًا يتلقفانه بأيديهما بحرص وحيطة تامّة، كما تشتق الآية من هذا الفعل صفة للملكين، بحيث تكاد تحصر صفتهما ووظيفتهما في هذا الفعل وحده، مما يلقي الرهبة في قلب العبد من هذين الملكين المتفرغين لإحصاء أقواله وأفعاله عليه من تمام اليقظة والحرص والتنبه.

([18]) التحرير والتنوير (٣٠١/٢٦).

([19]) الكشاف (٥٩٧/٥) وانظر: أضواء البيان (٤٢٩/٧).

([20]) السابق.

﴿قَعِيدٌ﴾ [21]: اختير القعود دون الجلوس أو المكث ونحوه للدلالة على الثبات والتمكن والترصد والملازمة، واستخدام الكلمة في تصريفاتها المختلفة يدل على ذلك، كما في ﴿مقاعد للقتال﴾ الدالة على التمكن والاستقرار، وكما في ﴿لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ (الأعراف:١٦) الدال على الترصد ويقال لامرأة الرجل: قعيدته لأنها ملازمته. وللكلمة استخدامات متعددة متقاربة الظلال والإيحاء بذلك المعنى[22].

ولاشك أن الكلمة بهذه الدلالات والإيحاءات تشارك في جو الترهيب الذي يسود هذه الآيات بتعدد صوره ونماذجه.

﴿يَلْفِظُ﴾ [23]: جاء التعبير بيلفظ ليدل على مطلق ما يخرج من الفم سواء كان له معنى أو ليس كذلك (وهو مأخوذ من لفظ الطعام وهو إخراجه من الفم)[24].

([21])"والقعيد_ قال بعضهم: معناه القاعد، والأظهر أن معناه: المقاعد، وقد يكثر في العربية إطلاق الفعل وإرادة المفاعل، كالجليس بمعنى المجالس، والأكيل بمعنى المؤاكل، والنديم بمعنى المنادم، وقال بعضهم: القعيد هنا هو الملازم، وكل ملازم دائمًا أو غالبًا يقال له: قعيد، ومنه قول متمم بن نويرة التميمي:

قعيدك ألا تسمعيني ملامة ولا تنكئي قرح الفؤاد فيجعا".[أضواء البيان (٤٢٩/٧) وانظر هذه المعاني في المحرر الوجيز (١٦٠/٥)، وروح المعاني (١٧٩/٢٦)، وفتح القدير (٧٥/٥)، والبحر المحيط (١٢٣/٨)، والجامع لأحكام القرآن (١١/٩).]

([22]) انظر المفردات: قعد.

(٢٣)"اللفظ أن ترمي بشيء كان في فيك. يقال: لفظت الشيء من فمي ألفظه لفظ: رميته. والدنيا لافظة: تلفظ بمن فيها إلى الآخرة، أي: ترمي لهم.

ولفظ نفسه يلفها لفظًا: كأنه رمى بها، وكذلك لفَظَ عَصْبته: إذا مات، وعصبه: ريقه الذي عصب بفيه. ولفظ الرجل: مات.

﴿رَقِيبٌ﴾: تدور مادة رقب[٢٥] حول معاني التربص والترصد والتطلع والإحاطة، فليس أدل على معنى تيقظ الملكين وترصدهما للعبد من معنى المراقبة الذي تدل عليه هذه الكلمة مما يوقع الخوف والرهبة والحذر من هذين الملكين.

﴿عَتِيدٌ﴾: تدور مادة عتد كذلك على الحضور والاستعداد والترقب، وهو ما يتآزر مع سياق الآيات[٢٦].

قال القرطبي: "وفي الرقيب ثلاثة أوجه: أحدها أنه المتبع للأمور. الثاني أنه الحافظ، قاله السدي. الثالث أنه الشاهد، قاله الضحاك. وفي العتيد وجهان: أحدهما أنه الحاضر الذي لا يغيب. الثاني أنه الحافظ المُعَدُّ إما للحفظ وإما للشهادة. قال الجوهري: العتيد الشيء الحاضر المهيأ؛ وقد عَتَّدَه تعتيدًا وأعْتَدَه

ولفظ بالشيء، يلفظ لفظًا: تكلم، وفي التنزيل العزيز: ﴿ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد﴾ ولفظت بالكلام وتلفظت به، أي: تكلمت به".[انظر اللسان: مادة (لفظ].

"وظاهر ﴿ما يَلْفِظُ﴾ العموم. قال مجاهد وأبو الحوراء: يكتب عليه كل شيء حتى أنينه في مرضه، وقال الحسن وقتادة: يكتبان جميع الكلام، فيثبت الله من ذلك الحسنات والسيئات، ويمحو غير ذلك. وقيل: مخصوص أي: من قول خير أو شر وقال معناه عكرمة_ وما خرج عن هذا فلا يكتب".[البحر المحيط (١٢٣/٨) وانظر الجامع لأحكام القرآن (١٢/٩)].

(٢٤) القرطبي: (٦١٨١/٩) ط الريان.

(٢٥) جاء في اللسان: رقب في أسماء الله تعالى: الرقيب: وهو الحافظ الذي لا يغيب عنه شيء؛ فعيل بمعنى فاعل. وفي الحديث: "ارقبوا محمدًا في أهل بيته"، أي احفظوه فيهم. وفي الحديث: "ما من نبي إلا أعطى سبعة نُجباء رُقباء"، أي حفظة يكونون معه. والرقيب: الحفيظ(لسان العرب مادة رقب).

(٢٦) قال الراغب: العتاد: ادخارُ الشيء قبل الحاجة إليه كالإعداد، والعتيدُ: المُعدُّ والمَعَدُّ. قال تعالى: ﴿هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ﴾ [ق:٢٣]، ﴿رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾[ق:١٨]، أي:مُعْتَدٌّ أعمال العباد، وقوله: ﴿أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾[النساء:١٨]، قيل: هو أفْعَلْنا من العتاد، وقيل: أصله أعْدَدْنا، فأُبْدِلَ من إحْدَى الدالين تاء. وفَرَسٌ عَتِيدٌ وَعَتَدٌ: حاضرُ العَدْوِ(المفردات: عتد ص٥٤٥).

إعتادًا أي: أعدّه ليوم، ومنه قوله تعالى ﴿وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً﴾[يوسف:٣١]
وفرس عتدٌ وعتدٌ بفتح التاء وكسرها المعدُّ للجري.

قلت: وكله يرجع إلى معنى الحضور،ومنه قول الشاعر:

لئن كُنتَ منّي في العيَان مُغَيَّبا   فذكرك عندي في الفؤاد عَتيدُ"[٢٧]

﴿وَجَاءتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ﴾: وصفت الآية حالة الاحتضار بالسكرة[٢٨] بيانًا لشدّة أهوالها التي تذهب العقل[٢٩]، ووصفها بالمجيء بيانًا لحضورها ومعاينة العبد لها، وجعل هذا المجيء ملتبسًا بالحق على كون الباء للملابسة، أو آتية بالحق على جعلها للتعدية ووصف المجيء بأنه بالحق لبيان عدم تخلفه وأنه أمر لا مرية فيه.

"ويلفت النظر في التعبير ذكر كلمة الحق ﴿وجاءت سكرة الموت بالحق﴾ وهي توحي بأن النفس البشرية ترى الحق كاملا وهي في سكرات الموت، تراه بلا حجاب، وتدرك منه ما كانت تجهل وما كانت تجحد، ولكن بعد فوات الأوان، حين لا تنفع رؤية، ولا يجدي إدراك ولا تقبل توبة، ولا يحسب إيمان. وذلك لاحق هو الذي كذبوا به فانتهوا إلى الأمر المريج، وحين يدركون ويصدقون لا يجدي شيئا ولا يفيد"[٣٠].

([٢٧]) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن (٩/١١-١٢)- ط المكتبة التجارية.

(٢٨) "السكران: خلاف الصاحي، والسُّكر: نقيض الصحو، والمسكر: المخمور، وسكرة الموت: شدته، والسكرة: الغضبة، وسكِّر بصرة: غشي عليه. يقال: سكرت عينه تسكر إذا تحيرت وسكنت عن النظر".[انظر اللسان: مادة (سكر)]

([٢٩]) السّكرة: اسم لما يعتري الإنسان من ألم أو اختلال في المزاج يحجب من إدراك العقل فيختل الإدراك ويعتري العقل غيبوبة. وهي مشتق من السَّكر بفتح فسكون وهو الغلق لأنه يغلق العقل ومنه جاء وصف السكران(التحرير والتنوير ص٣٠٦).

(٣٠) في ظلال القرآن (٦/٣٣٦٤).

قال الزمخشري: "وسكرة الموت: شدته الذاهبة بالعقل[31]. والباء في بالحق للتعدية، يعني: وأحضرت سكرة الموت حقيقة الأمر الذي أنطق الله به كتبه وبعث به رسله. أو حقيقة الأمر وجلية الحال: من سعادة الميت وشقاوته. وقيل: الحق الذي خلق له الإنسان، من أن كل نفس ذائقة الموت. ويجوز أن تكون الباء مثلها في قوله: ﴿تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ﴾[المؤمنون:٢٠] أي وجاءت ملتبسة بالحق، أي: بحقيقة الأمر. أو بالحكمة والغرض الصحيح، كقوله تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾[الأنعام:٧٣] وقرأ أبو بكر وابن مسعود -رضي الله عنهما- "سكرة الحق بالموت" على إضافة السكرة إلى الحق والدلالة على أنها السكرة التي كتبت على الإنسان وأوجبت له، وأنها حكمة. والباء للتعدية؛ لأنها سبب زهوق الروح لشدتها، أو لأن الموت يعقبها؛ فكأنها جاءت به. ويجوز أن يكون المعنى: جاءت ومعها الموت. وقيل: سكرة الحق سكرة الله، أضيفت إليه تفظيعًا لشأنها وتهويلا[32].

﴿تَحِيدُ﴾:أي تفر وتهرب أو تميل عنه[33]، فلا هو يستطيع أن يفر من الموت ولا يجد عنه محيدًا ولا ملاذًا، وهي تصور مدى نفرة الإنسان من الموت وكراهيته له.

﴿ذلك ما كنت منه تحيد﴾ إن الإنسان "يرجف لصداها وهو بعد في عالم الحياة، فكيف به حين تقال له وهو يعاني السكرات؟! وقد ثبت في الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم- لما تغشاه الموت جعل يمسح العرق عن وجهه،

(٣١)"والموت أشد ما يحاول المخلوق البشري أن يروغ منه، وأن يبعد شبحه عن خاطره، ولكن أنى له ذلك، والموت طالب لا يمل الطلب، ولا يبطئ الخطى ولا يخلف الميعاد، وذكر سكرة الموت كفيل برجفة تدب في الأوصال".[في ظلال القرآن (٣٣٦٤/٦)].

(٣٢) الزمخشري: الكشاف (٥٩٨/٥)- مكتبة العبيكان.

(٣٣) يقال: جاد عن الشيء أي مال عنه وعدل (مختار الصحاح حيد).

ويقول: "سبحان الله! إن للموت لسكرات"، يقولها وهو قد اختار الرفيق الأعلى واشتاق إلى لقاء الله. فكيف بمن عداه؟!"[34].

﴿فِي غَفْلَةٍ﴾: عبر بفي للدلالة على الانغماس في الغفلة والغرق فيها.

والغفلة[35]: شيء من الغطاء كاللبس وأكثر منه لأن الشاك يلتبس الأمر عليه، والغافل يكون الأمر بالكلية محجوبًا قلبه عنه وهو (الغلف)[36].

﴿فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ﴾[37]: عبر بالكشف دون الترع أو الإزالة للدلالة على وضوح الأمر وانكشافه وبيانه للغافل حينئذ.

والتعبير بـــ(عنك) يفيد أن الإنسان مجبر عل هذا الكشف، المتمثل في سكرات الموت ومعاينة عاقبته، وأنه ليس له أدنى اختيار فيه.

وعبر بالغطاء[38] ليدل على مدى ما كان فيه من بعد وغيبة عن الحق، حيث كان يغلب عليه الباطل وتغطيه الشهوات بغطاء كثيف يحجبه عن رؤية الحق.

([34]) في ظلال القرآن (٣٣٦٤/١٦).

(٣٥) "غفل عنه يغفل: تركه وسها عنه، وأغفلت الشيء: تركته غفلا وأنت له ذاكر، والتغافل: تعمد الغفلة على حج ما يجيء عليه هذا النحو، والمغفل: الذي لا فطنة له، والغُفل: المُقيَّد الذي أغفل، فلا يرجى خيره، ولا يخشى شره"[35].

([36]) مفاتيح الغيب للرازي (٤٣٨/١٤).

(٣٧)"كشف، الكشف: رفعك الشيء عما يواريه ويغطيه، وكشف الأمر: أظهره، وكَشَّفَه عن الأمر: أكرهه على إظهاره"[انظر لسان اللسان: مادة (كشف)]

(٣٨)"غطى الشباب غَطْيًا وغُطيًّا: امتلأ، غَطَاه الشباب يغطيه، وغطّاه: ألبسه، وغَطّاه الليل: ألبسه ظلمته، وغَطَت الشجرة وأغْطَت: طالت أغصانها وانبسطت على الأرض فألبست ما حولها، وغَطَى الشيء وغطّاه: ستره وعلاه. والغِطاء: ما غُطّي به". [انظر لسان اللسان: مادة (غطى)].

﴿فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾:"قيل: يراد به بصر القلب كما يقال هو بصير بالفقه؛ فبصر القلب وبصيرته تبصرته شواهد الأفكار ونتائج الاعتبار، كما تبصر العين ما قابلها من الأشخاص والأجسام. وقيل: المراد به بصر العين وهو الظاهر أي بصر عينك اليوم حديد؛ أي قويّ نافذ يرى ما كان محجوبًا عنك. قال مجاهد: ﴿فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ "أي: نافذ لزوال المانع للإبصار"[٣٩] يعني نظرك إلى لسان ميزانك حين توزن سيئاتك وحسناتك. وقاله الضحاك. وقيل: يعاين ما يصير إليه من ثواب وعقاب. وهو معنى قول ابن عباس. وقيل: يعني أن الكافر يحشر وبصره حديد ثم يزرق ويَعْمَى. وقرئ ﴿لَقَدْ كُنْتِ﴾ ﴿عَنْكِ﴾ ﴿فَبَصَرُكِ﴾ بالكسر على خطاب النفس[٤٠]، وقيل: المراد به بصر العين وهو الظاهر، أي: بصر عينك اليوم حديد؛ أي: قويٌّ نافذ يرى ما كان محجوبًا عنك"[٤١].

والذي نميل إليه أن البصر هنا يشمل النوعين فلا مانع من حمله على كلا المعنيين من بصر القلب، وبصر العين، فالقلب تزول عنه الغشاوة يومئذ، وكذلك النظر يكون قويا حديدًا لمشاهدة الأهوال والأوجال، ومعاينة الحقائق التي لا يتم معرفتها إلا بالمعاينة والنظر إليها.

﴿مُعْتَدٍ﴾: الاعتداء مجاوزة الحد[٤٢]، ولاشك أن هؤلاء المكذبين بالبعث قد جاوزوا الحد بإنكار ما تدل عليه الفطرة والعقول المستقيمة وتتظاهر عليه الأدلة الكونية والشرعية.

---

(٣٩) روح المعاني (١٨٤/٢٦).

(٤٠) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن (١٥/٩)- المكتبة التجارية.

(٤١) هذا ما استظهره القرطبي والذي نميل إليه: أن البصر هنا يشمل بصر القلب كذلك، وقد حكاه القرطبي كذلك عن بعض السلف. انظر (١٥/٩).

(٤٢) يقال: "أعديت منطقتك أي: جُزْت، العادي: الظالم، العَدْوَى: الفساد، العُدَواء: بُعْد الدار، العِدَى: الغُرَباء والأعداء. العَدى: التباعد. وتَعَادَى ما بينهم: اختلف".[انظر لسان العرب: مادة

﴿مُرِيبٍ﴾: الرّيب: الشك، وترتيب الإلقاء في جهنم على الاعتداء بالتكذيب للبعث، والتشكيك فيه بالباطل مناسب لترهيبهم عن ذلك التشكيك والتكذيب وزجر نفوسهم عنه.

﴿أَطْغَيْتُهُ﴾: "طغى يَطْغَى طَغْيا، وطُغْيانا: جاوز القدر وارتفع وغلا في الكفر. وفي التتريل: ﴿وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾[الأنعام:١١٠] وقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ﴾[الحاقة:٥] قال الزجاج: الطاغية: طُغيانهم، اسم كالعاقبة والعافية.

وطغى الماء: ارتفع وعلا، وفي التتريل: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ﴾[الحاقة:١١]"[٤٣].

وفي ذكر الطغيان هنا مراعاة للنظائر المذكورة من الاعتداء والتكذيب والتعجب والسخرية من البعث مما ذكر في أول السورة نحو (بَلْ عَجِبُوا- هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ- ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ- بَلْ كَذَّبُوا- مُعْتَدٍ مُرِيبٍ- ضَلَالٍ بَعِيدٍ) وهذا كله مناسب لما ترتب عليه من العذاب والإلقاء في جهنم.

﴿أُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ﴾: قُرِّبَتْ[٤٤]، وإزلاف الشيء تقريبه حسيًّا ومعنويًّا بحيث يكون بمعنى القربى أي ما يتقرب به وينال به رضا المقدم إليه، ومنه الزّلفى، ومن ثم تأتي مناسبة اللفظ لسياق الترغيب في تصوير الجنة وكأنها هدية تهدى وقربة تقرب إلى المؤمنين.

(عدا)]

([٤٣]) ابن سيده: المحكم والمحيط الأعظم – تحقيق د/عبدالحميد هنداوي (٨/٦)- ط دار الكتب العلمية.

([٤٤]) قال ابن سيده: "وأزلف الشيء: قرَّبه، وفي التتريل: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الشعراء:٩٠] أي: قُرِّبتْ، قال الزجاج: وتأويله: أي قَرُبَ دُخولُهم فيها، ونظرهم إليها.

﴿أَوَّاب حَفِيظ﴾[45]: "الأوّاب: الرجّاع إلى ذكر الله تعالى، والحفيظ: الحافظ لحدوده تعالى"[46].

وفي ذكر الأوبة وهي الرجوع إلى الله تعالى بالاقتراب منه –كلما ابتعد العبد بذنبه ومعصيته– مناسبة تامة لما ذكر من تقريب الجنة، للدلالة على أن الجزاء من جنس العمل.

﴿مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ﴾ : في اختيار ألفاظ هذه الآية وتعليق بعضها ببعض على هذا النحو من النظم العجيب تناسب بديع.

فاختار الخشية دون الخوف، وذلك لما تتميز به من إجلال المخشيِّ ومهابته.

واختار الرحمن دون الجبار ليشعر بدرجة هؤلاء المقربين الذين يجلّون الله تعالى؛ لأنه أهل لأن يجلّ ويعظم ويخشى مع علمهم بواسع رحمته.

وجعل الخشية بالغيب لتكون أبلغ في حق الخاشي لأنه يخشى من لا يراه وجاء ذكر الإنابة مناسبًا لنظيره المذكور في صفة (أواب) لتفيد كثرة الرجوع إلى الله تعالى والقرب منه بحيث يصبح ذلك صفة ثابتة للعبد.

﴿بَطْشًا﴾: "البطش: هو التناول بشدة"[47]، ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ [الشعراء:١٣٠].

---

(٤٥) "الأواب: الرجوع، وأوّاب: كثير الرجوع إلى الله عز وجل ـ من ذنبه. والأوَّاب: التائب. قال أبو بكر: في قولهم رجل أوَّاب سبعة أقوال: قال قوم: الأوَّاب الراحم، وقال قوم: الأوَّاب: التائب، وقال سعيد بن جبير: الأوَّاب المسبح، وقال ابن المسيب: الأوَّاب الذي يذنب ثم يتوب ثم يذنب ثم يتوب، وقال قتادة: الأوَّاب المطيع، وقال عبيد بن عمير: الأوَّاب الذي يذكر ذنبه في الخلاء، وقال أهل اللغة: الأوَّاب الرجَّاع إلى التوبة والطاعة . من آب يئوب إذا رجع. وقيل هو المطيع".[انظر لسان العرب: مادة (أوب)].

(٤٦) الكشاف: (٢٤/٤) ط دار المعرفة.

(٤٧) المحكم لابن سيده (٢٢/٨).

ولما كان البطش مقترنًا بالجبروت والشدّة ناسب أن يورد هنا عند الحديث عن إهلاكهم لبيان قدرة الله تعالى، وبيان سبب إهلاكهم وهو تجبرهم على الناس واشتدادهم بالباطل.

﴿فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِنْ مَحِيصٍ﴾:"التنقيب: التنفير عن الأمر والبحث والطلب"[٤٨] وهذا يدل على مدى قدرتهم وتصرفهم بالسعي في الأرض والتنقير فيها، ومع ذلك لم يستطيعوا خلودًا، ولم يجدوا محيصًا ولا ملاذًا ولا مهربًا من الموت، ولا نجاة من عذاب الله، ولم يغن عنهم جمعهم وتنقيرهم من شيء.

قال الحارث بن حلزة:

نقبوا في البلاد من حذر المو ت وجالوا في الأرض كل مجال[٤٩]

﴿شَهِيدٌ﴾: (أي حاضر[٥٠] بفطنته لأن من لا يحضر ذهنه فكأنه غائب لا يعي قلبه)[٥١] فلذلك قيّد التذكر بمن كان حاضر القلب، والمقصود أن تحضر قلبه تلك المشاهد الأخروية والأخبار الإلهية بحيث كأنه يراها رأيَ العين فيستقر الإيمان في قلبه وتحدث له الذكرى.

ثانيًا: تحقق المطابقة على المستوى الصوتي:

-قصر الفواصل وسرعتها مناسب لجو الترهيب في هذا المقطع.

-انتهاء الفواصل في هذا المقطع بحرف الدال الساكن بما يشتمل عليه من سمات الجهر والشدّة والانفجار والقلقلة بما يحدث هزّة لهذه القلوب الغافلة مما يناسب سياق الترهيب في هذه الآيات.

---

(٤٨) الكشاف:(٤/٢٤).

(٤٩) الكشاف: السابق.

(٥٠) قال ابن سيده: (والشاهد والشهيد: الحاضر ٤/١٨١).

(٥١) الكشاف: (٤/٢٥).

-(حقّ) القاف المشدّدة بما تشتمل عليه من الشدّة والتفخيم والاستعلاء تناسب التعبير عن الحق وتطابقه.

-لبس: قلقلة الباء في (لبس) تصور بحركة اللسان عند النطق بها حالة اللبس والاختلاط والتردد في الحق، مما يناسب التعبير عن حالة هؤلاء المكذبين ويطابق ما هم عليه من التردد، كما سبق في قوله تعالى: ﴿فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ﴾.

﴿تُوَسْوِسُ﴾: إن مما يلفت النظر في الإعجاز الصوتي لهذه الكلمة هو مجيئها مركبة من هذين الحرفين الرقيقين (الواو والسين) فينظر إلى ما في الواو من خفاء ورقة ولين مع قرب مخرجه لكونه شفويا، كما ينظر إلى مناسبة لينه ورقته وخفائه لمعنى الوسوسة وما فيها من خفاء ولين ورقة، كما تأتي دلالة قرب المخرج للدلالة على علم الله تعالى بأدق الأصوات وأقربها مخرجًا فكأن هذا يدل على علم الله تعالى بأدق الأصوات وأقربها مخرجًا، وفكأن هذا يدل على علم الله تعالى بأدق الأصوات وأخفضها صوتًا وهو ما خرج من بين الشفاه فما بالك بما فتح صاحبه فيه فمه وما كان من أقصى الحلق ونحو ذلك مما يرفع فيه الصوت؟! فمن ثم كانت مناسبة الواو للدلالة على تلك المعاني ثم لك أن تتأمل دلالة السين، وما فيها من همس ورخاوة وصفير مع قرب المخرج كذلك فهي تلي الواو مخرجًا لكونها مما بين الثنايا وطرف اللسان والهمس هو جري النفس في الحرف بلا انحباس فيخرج الحرف سهلا لا جهر فيه يناسب الوسوسة الخفية لكونه لا جهر فيه؛ كما ناسبها كذلك لكونه رخوًا ليس بالشديد؛ كما ناسب صوت الوسوسة الذي يشبه صفير الريح، ووسوسة الحلي بما فيه من صفير يصاحبه في النطق.

فإذا ضممنا إلى ذلك أيضًا قرب مخرجه وماله من مناسبة سبق بيانها في حرف الواو، تبين لنا مدى مناسبة هذين الصوتين للدلالة على المعنى المراد وهو علم الله تعالى بالدقائق من الوساوس والخطرات الخفية التي لا يعلمها إلا هو.

﴿غِطَاءَكَ﴾: التعبير بالغطاء دون الغشاء تتناسب فيه السمات

الصوتية مع الدلالة المعجمية فحرف الطاء في الغطاء يكسب الكلمة كثافة وثقلا ليست في الغشاء الذي يتناسب فيه حرف الشين مع رقته بالنسبة للغطاء، ومن ثم جاء التعبير بالغطاء متناسبًا كذلك من الناحية الصوتية للتعبير عن حجاب الغفلة الكثيف الذي كان يحجب هذا الغافل عن رؤية تلك الحقائق.

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلادِ هَلْ مِنْ مَحِيصٍ﴾: تتحدث الآية عن إهلاك الأمم العاتية على شدّة قوتّها وبطشها وجبروتّها ومن ثم كثرت في الآية الحروف المفخمة مثل القاف والطاء والصاد مع التشديد كما في (**قَبْلَهُمْ-قَرْنٍ-بَطْشًا-فَنقَّبُوا-مَحِيصٍ- أَشَدُّ**).

كما نلحظ ذلك على سبيل المثال في الطاء المفخمة في (**بَطْشًا**) مع ما فيها من قلقلة جاءت مناسبة لحركة البطش من حيث ما تميز به صوت الطاء المقلقلة من (حركة وشدة وفخامة وقوة) وكلها تناسب ما كان عليه هؤلاء القوم من شدة البطش والطغيان.

﴿وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾: تتناسب السمات الصوتية لكلمة (المسّ) مع دلالتها المعجمية السابق بيانها من حيث دلالتها على أقل الإصابة وأهونها، وذلك لقرب مخرج الميم والسين ورقتهما وسهولة مخرجهما مما يناسب الدلالة المعجمية المتناسبة مع الدلالة المقامية لهذه الكلمة في هذا السياق.

ثالثًا ورابعًا: تحقق المطابقة على المستويين الصرفي والنحوي:

-التعبير بالأفعال الماضية (**كَذَّبَتْ- كَذَّبَ- حَقَّ- عَيِينَا**) جاء التعبير بالماضي على الحقيقة لكونها أفعالا مضت لأمم وأحداث سابقة.

-كثرة أسماء الأمم والأقوام الهالكة من المكذبين السابقين، وتوالى عطف بعضها على بعض للدلالة على أن وعيد الله لا يتخلف لمن كذب رسل الله.

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ (١٢) وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ

وَإِخْوَانُ لُوطٍ (١٣) وَأَصْحَابُ الأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ﴾

"وقال هاهنا: ﴿وَإِخْوَانُ لُوطٍ﴾ وقال: ﴿قَوْمُ نُوحٍ﴾ لأن لوطًا كان مرسلا إلى طائفة من قوم إبراهيم عليه السلام معارف لوط، ونوح كان مرسلا إلى خلق عظيم، وقال: ﴿وفرعون﴾ و لم يقل قوم فرعون،وقال: ﴿وقوم تبع﴾ لأن فرعون كان هو المغتر المستخف بقومه، المستبد بأمره. وتُبَّع كان معتمدًا بقومه فجعل الاعتبار لفرعون،و لم يقل إلى قوم فِرعون"[٥٢].

"﴿وإخوان لوط﴾ سماهم إخوانه لأن بينهم وبينه نسبًا قريبًا"[٥٣].

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ "إلى آخر استئناف وارد لتقرير، حقية البعث ببيان اتفاق كافة الرسل _عليهم الصلاة والسلام _ عليها وتكذيب منكريها"[٥٤].

-تنوين العوض في (كُلٌّ كَذَّبَ) فيه إيجاز يناسب السرعة والحسم واختصار الكلام في مقام الوعيد لأن أصله كل قوم أو أمّة، ويمكن أن يفهم من قوله (كُلٌّ كَذَّبَ) أي (هم وأنتم) فيتحقق وعيدهم على صورة بليغة لاشتراكهم معهم في النتيجة والعاقبة (فَحَقَّ وَعِيدِ).

- ﴿أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الأَوَّلِ﴾: أسلوب إنشائي من نوع الاستفهام الإنكاري غرضه التهكم والسخرية والتشنيع والإنكار عليهم ما هم فيه من تكذيب الإعادة مع كونها أهون من الإنشاء.

-"(بل) في قوله: ﴿بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ للإضراب الإبطالي عن المستفهم عنه أي: بل ما عيينا بالخلق الأول، أي وهم يعلمون ذلك ويعلمون أن الخلق الأول للأشياء أعظم من إعادة خلق الأموات ولكنهم تمكن منهم اللبس

([٥٢]) مفاتيح الغيب (٤٣٢/١٤).

([٥٣]) تفسير النسفي (١٧٧/٤).

([٥٤]) روح المعاني (١٧٨/٢٦).

الشديد فأغشى إدراكهم عن دلائل الإمكان فأحالوه، فالإضراب على أصله من الإبطال[٥٥].

- ﴿هُمْ فِي لَبْسٍ﴾: التعبير بالجملة الاسمية للدلالة على استدامة حال اللبس والخلط وتماديهم فيه.

-والتعبير بـــ(في) الدال على الظرفية يفيد انغماسهم واستغراقهم في هذا اللبس وإحاطته بهم إحاطة الظرف بالمظروف.

-و(من) في قوله: ﴿مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ ابتدائية وهي صفة لـــ(لبس)، أي ليس واصل إليهم ومنجرّ عن خلق جديد، أي من لَبْس من التصديق به.

وتنكير (لبس) للنوعية وتنكير ﴿خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ كذلك، أي: ما هو إلا خلق من جملة ما يقع من خلق الله الأشياء فما وجه إحالته ولتنكيره أجريت عليه الصفة بــــ(جديد)[٥٦].

﴿تُوَسْوِسُ﴾: نلاحظ أن "اختيار الفعل مضاعف الرباعي جاء مناسبًا أتم المناسبة لمعناه، ومن ثم لسياقه ومقامه.

وذلك أن الفعل (وسوس) هو تضعيف (وس) وهذا التضعيف نشأ عن تكرار هذا المقطع (وس) فإذا التفت إلى ذلك لمحت المناسبة بينه وبين عملية الوسوسة وطبيعتها القائمة على التكرير والإلحاح، فوسوسة النفس وكذلك وسوسة الشيطان ما هي إلا إغراء النفس بفعل المنهي عنه، ووسيلة هذا الإغراء لا تكون إلا بالتكرار والإلحاح الدائم على النفس حتى تضعف وتقع فريسة للنوازع والرغبات الدنيئة.

---

(٥٥) تفسير التحرير والتنوير (٢٦/٢٩٨).

(٥٦) التحرير والتنوير (٢٦/٢٩٨).

وننتقل إلى الدلالة النحوية لنقف أمام دلالة المضارع حيث اختيرت صيغة المضارعة للتعبير عن حدوث الفعل وتجدده وتكرره ليعبر عن عملية الإلحاح التي تمثل عنصرًا أساسيا في عملية الوسوسة، وليدل على سعة علم الله تعالى بهذه الوساوس مهما كثرت وتجددت وتكررت ولهذا اختير المصدر المئول من (ما والفعل المضارع) على المصدر الصريح وسوسة لدلالة الفعل على التجدد دون المصدر الصريح (وسوسة).

ومن ثم نتبين مدى مناسبة تلك الكلمة لسياقها ومقامها بما لها من دلالة فنية كانت محصلة تلك الدلالات الصوتية والصرفية والمعجمية والنحوية لتلك الكلمة القرآنية(٥٧).

﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ﴾: التعبير بالضمير (نحن) إما على الحقيقة باعتبار قرب الملائكة، أو لتعظيم نفسه سبحانه مما يتناسب مع سياق الترهيب في هذا المقام.

﴿أَقْرَبُ﴾: صيغة (أفعل) التي تفيد التفضيل هنا تدل على مدى قربه سبحانه وتعالى أو قرب ملائكته من العبد وإحاطتهم بكل أقواله وأفعاله.

﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾: تقديره عن اليمين قعيد، وعن الشمال قعيد من المتلقيين، فترك أحدهما لدلالة الثاني عليه كقوله:

كنت منه ووالدى بريًا..."(٥٨).

وفي ذلك إيجاز بالحذف وهو من البلاغة بمكان فضلا عما فيه من نكتة بديعة وهي توحيد أمر الملكين، وأنهما كأنهما ملك واحد قعيد، فلا اختلاف بينهما ولا تضاد في امتثال ما كلفا به من جهة الله تعالى.

---

(٥٧) أضواء على مسيرة البلاغة العربية (٢٥-٢٦).

(٥٨) الكشاف (٥/٥٩٧) ط العبيكان.

-وجملة ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ﴾ إلخ مبينة لجملة ﴿يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ﴾ فلذلك فصلت، فهي بيان لوظيفتهما ومهمتهما في رقابة العبد.

-و(من) زائدة في مفعول الفعل المنفي للتنصيص على الاستغراق والاستثناء في قوله ﴿إِلا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ استثناء من أحوال عامة، أي ما يقول قولا في حالة إلا في حالة وجود رقيب عتيد لديه[59].

﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ﴾: عبر عن مجيء الموت بصيغة الماضي دون المضارع ليدل على تحقق وقوعه قصدًا لإدخال الروع في النفوس مما يناسب سباق الترهيب في الآيات.

﴿بِالْحَقِّ﴾ "والباء للتعدية، كما في قولك: جاء الرسول بالخير، والمعنى: أُحضرتْ سكرة الموت حقيقة الأمر الذي نطقت به كتب الله – تعالى_ ورسله عليهم السلام. وقيل: حقيقة الأمر وجلية الحال من سعادة الميت وشقاوته، وقيل بالحق الذي ينبغي أن يكون من الموت والجزاء، فإن الإنسان خلق له.

وإما للملابسة، كما في قوله تعالى: ﴿تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ﴾ [المؤمنون: ٢٠] أي: ملتبسة بالحق، أي: بحقيقة الأمر، وقيل: بالحكمة والغاية الجميلة[60]. وأيا ما كان الأمر فإن تعلق الجار والمجرور (بالحق) بالمجيء إنما هو لتوكيده وللإخبار بأنه أمر حق لا يتخلف وقوعه، والغرض من هذا الإخبار تعظيم أمر الموت وإحضاره في النفوس استعدادا له.

﴿ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾: (ما) في هذا السياق تحتمل أن تكون موصولة بمعنى (الذي)، وأن تكون نافية، ولا تنافي بين المعنيين، فقد كان يفر من

---

(٥٩) التحرير والتنوير (٢٦/٣٠٣).

(٦٠) روح المعاني (٢٦/١٨٢).

الموت، ويتجنب أسبابه، ويحيد عنه، وهو الآن ساعة معاينته لا يستطيع أن يحيد عنه ولا أن يفرّ منه.

فعلى الأول يكون الغرض من الخبر هو التوبيخ والتأنيب، وعلى الثاني يكون الغرض هو التيئيس والتحسير.

﴿كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾: في الخطاب هنا التفات[٦١] عن حديث الغائب في قوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ﴾ وغرض الالتفات والنكتة فيه أنه أنكى في التوبيخ والتأنيب والتحسير من حديث الغائب.

﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾: "عطف على ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ﴾ على تفسير الجمهور. فأما على تفسير الفخر فالجملة مستأنفة وصيغة المضيّ في قوله (وَنُفِخَ) مستعملة في معنى المضارع، أي ينفخ في الصور فصيغ له المضي لتحقق وقوعه مثل قوله تعالى: ﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ والمشار إليه بذلك في قوله: ﴿ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ﴾ إذ أن ذلك الزمان الذي نفخ في الصور عنده هو يوم الوعيد[٦٢].

وجملة ﴿ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ﴾ جملة معترضة جيء بها لتعظيم ساعة النفخ، وإدخال هولها على القلوب، ولفت الأنظار إليها، فالإشارة فيها للتعظيم.

"ذلك يوم الوعيد" هو على حذف أي: وقت ذلك يوم الوعيد والإشارة إلى مصدر "نُفِخَ" وأضاف الوعيد، وإن كان يوم الوعد والوعيد معًا على سبيل التخويف"[٦٣].

([٦١]) انظر الكشاف للزمخشري (٥/٥٩٨).

([٦٢]) التحرير والتنوير (٢٦/٣٠٧).

([٦٣]) البحر المحيط (٨/١٢٣).

﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ﴾: "مقول قول محذوف دل عليه تعينه من الخطاب، أي يقال هذا الكلام لكل نفس من نفوس المشركين فهو خطاب التهكم التوبيخي للنفس الكافرة لأن المؤمن لم يكن في غفلة عن الحشر والجزاء.

وجملة القول ومقوله في موضع الحال من (كُلُّ نَفسٍ) أو موقع الصفة، وعلامات الخطاب في كلمات (كُنْتَ، وعَنْكَ، وغِطَاءَكَ، وفَبَصَرُكَ) مفتوحة لتأويل النفس بالشخص أو بالإنسان ثم غلب فيه التذكير على التأنيث. وهذا الكلام صادر من جانب الله تعالى وهو شروع في ذكر الحساب[٦٤].

وأرى –والله أعلم– أن حذف القائل في هذا الموضع، وإبقاء الكلام فيه على صيغة الخطاب لعدم إشعار المخاطب بالنقلة وتحول الحديث بحيث يتمادى مع الخطاب المؤسس من الآيات السابقة متزلا ذلك الخطاب على نفسه، بخلاف ما لو قيل يقال للكافر أو المكذب كذا وكذا، أو تقول الملائكة للكافر كذا وكذا.

﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ﴾: قال الرازي: "يقال للسائق أو الشهيد: ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ﴾ فيكون هو أمر الواحد، وفيه وجهان:

أحدهما: أنه ثنى تكرار الأمر كما في (ألق– ألق)

وثانيهما: عادة العرب ذلك"[٦٥].

ولا مانع أن يزاد هنا وجه ثالث بأن يكون الخطاب للمثنى على الحقيقة بأن يقال للسائق والشهيد معًا ألقيا، وهذا ظاهر الخطاب، أو يكون الكلام للمكين غيرهما ويؤكد أن الكلام هنا على ظاهره إعادة الأمر مثنى في قوله: ﴿فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ﴾ وأما على أن يكون الأمر للواحد وقد ثنى للتكرار فيكون ذلك لغرض بلاغي هو توكيد الأمر وإظهار العجلة في تنفيذه وإبرامه، فضلا عما فيه

([٦٤]) التحرير والتنوير (٣٠٨/٢٦-٣٠٩).

([٦٥]) مفاتيح الغيب (٤٣٩/١٤).

من استهانة بالكافر المعجل به إلى النار، وإظهار مدى بغض الجبار له وسخطه عليه، كما يأتيك كتاب ممن تبغضه فتقول لحامله: (ألقه، ألقه) أو (خرقه، خرقه).

وقد يكون مخرجا على طريقة العرب في كلامهم حيث اعتاد الشعراء مخاطبة المثنى في أشعارهم كما في (قفا نبك...) ونحو ذلك.

والأول أظهر، والثاني أقوى من جهة البلاغة.

(كفّار، منّاع) على صيغة فعّال للمبالغة في إثبات كفره لبيان استحقاقه للعذاب، وبيان ما جبل عليه من الكنود ومنع الخير.

﴿عَنِيدٍ﴾: صفة مشبهة على صيغة فعيل تدل على ثباته على العناد والمكابرة في رفض الحق والإصرار على الباطل.

﴿قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلالٍ بَعِيدٍ﴾: حكاية قول القرين بالأسلوب المتبع في حكاية المقاولات في القرآن وهو أسلوب الفصل دون عطف فعل القول على شيء. تشعر بأن في المقام كلامًا مطويا هو كلام صاحب القرين طوي للإيجاز، ودليله ما تضمنه قول القرين من نفي أن يكون هو أطغى صاحبه إذ قال: ﴿رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلالٍ بَعِيدٍ﴾ وقد حكى ذلك في سورة ص صريحا بقوله: ﴿هَذَا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ لا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُو النَّارِ(٥٩) قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ الْقَرَارُ(٦٠) قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ﴾. وتقدير المطوي هنا: أن الكفّار العنيد لما قدم إلى النار أراد التنصل من كفره وعناده وألقى تبعته على قرينه الذي كان يزّين له الكفر فقال: هذا القرين أطغاني، فقال قرينه: ﴿رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلالٍ بَعِيدٍ﴾.

فالقرين هذا هو القرين الذي تقدم ذكره في قوله: ﴿وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ﴾(٦٦).

"﴿قَالَ لا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ﴾: هذا حكاية كلام يصدر يومئذ من جانب الله تعالى للفريقين الذين اتبعوا والذين اتُّبعوا، فالضمير عائد على غير مذكور في الكلام يدل عليه قوله: ﴿فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ﴾.

وعدم عطف فعل (قال) على ما قبله لوقوعه في معرض المقاولة، والتعبير بصيغة الماضي لتحقق وقوعه فقد صارت المقاولة بين ثلاثة جوانب"(٦٧).

﴿وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ﴾:قال الرازي: "فإن قيل ما حكم الباء في قوله تعالى ﴿بِالْوَعِيدِ﴾؟ قلنا فيها وجوه:

أحدها: أنها مزيدة كما في قوله تعالى ﴿تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ﴾[المؤمنون:٢٠] على قول من قال إنها هناك زائدة، وقوله: ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ﴾ [النساء:٤٥].

وثانيها: معدية فقدمت بمعنى تقدمت كما في قوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ﴾ [الحجرات:١].

ثالثها: في الكلام إضمار تقديره: وقد قدمت إليكم مقترنًا بالوعيد: ﴿مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ﴾ فيكون المقدم هو قوله: ﴿مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ﴾.

رابعها: هي المصاحبة، يقول القائل: اشتريت الفرس بلجامه وسرجه، أي معه، فيكون كأنه تعالى قال: قدمت إليكم ما يجب مع الوعيد على تركه بالإنذار(٦٨).

(٦٦) التحرير والتنوير (٣١٣/٢٦)، وانظر الدر المصون (١٧٩/٦).

(٦٧) التحرير والتنوير (٣١٤/٢٦).

(٦٨) مفاتيح الغيب للرازي: (٤٤٥/١٤).

والراجح لدينا أن الباء في (بِالْوَعِيدِ) مزيدة للتوكيد لما في قوله تعالى: ﴿وَامْسَحُوا بِرُءوسِكُمْ﴾ [المائدة:٦] وهيَ تضمن معنى بعث الرسل وإرسالهم كما تقول: (بعثت إليك برسالة أو بكذا) وإن كانت مزيدة في الموضعين.

﴿وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾: "جاءت صيغة المبالغة (ظلام) في هذه الآية وشبيهاتها على وزن (فعال) محتملة الدلالة على المبالغة، والدلالة على النسبة، وقد استشكل العلماء دلالتها على المبالغة لأنها تمثل عدولا عن السياق والمقتضى وما ربك بظالم، وذلك أن السياق هنا بصدد بيان كمال عدله سبحانه وتتريهه عن نسبة الظلم إليه.

"قوله: ﴿يوم نقول﴾ يوم منصوب، إما بظلام ولا مفهوم لهذا؛ لأنه إذا لم يظلم في هذا اليوم فيفي الظلم عنه في غيره أحرى، أو بقوله: ﴿ونفخ في الصور﴾ والإشارة بذلك إلى "يوم نقول" قاله الزمخشري، واستبعده الشيخ بكثرة الفواصل. أو منصوب باذكر أو بأنذر، مقررًا. وهو على هذين الأخيرين مفعول به لا ظرف"[٦٩].

"وقوله تعالى: ﴿هل من مزيد﴾ فيه وجهان:

أحدهما: أنه لبيان استكثارها الداخلين، كما أن من يضرب غيره ضربًا مبرحًا، أو يشتمه شتمًا قبيحًا فاحشًا، ويقول المضروب: هل بقي شيء آخر؟! ويدل عليه قوله تعالى: ﴿لأملأن﴾؛ لأن الامتلاء لابد من أن يحصل، فلا يبقى في جهنم موضع خال حتى تطلب المزيد.

الثاني: هو أنها تطلب الزيادة[٧٠].

---

(٦٩) الدر المصون (١٧٩/٦) بتصرف.

(٧٠) مفاتيح الغيب (٤٥٣/١٤، ٤٥٢).

﴿هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ (٣٢) مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ﴾: صيغة فعال في كلمة أواب هنا جاءت للمبالغة في حق المؤمن الرجاع إلى الله تعالى بالتوبة والندم، ويحسن من مجيئها في هذا الموضع أنها جاءت في مقابل صيغة المبالغة (كفّار، ومنّاع) في حق الكافر.

وكذلك جاءت (فعيل) في (حفيظ) و(منيب) لإثبات الدوام والثبات في حفظ حدود الله تعالى في مقابل (فعيل) في وصف الكافر (عنيد) و(مريب).

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلادِ هَلْ مِنْ مَحِيصٍ﴾: (كَمْ) خبرية وجرّ تمييزها بـــ(من) على الأصل.

والاستفهام إنكاري بمعنى النفي، ولذلك دخلت (من) على الاسم الذي بعد الاستفهام، كما يقال: ما من محيص، وهذا قريب من قوله في سورة ص: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادَوْا وَلاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾[٧١] [ص:٣].

(٧١) التحرير والتنوير (٢٦/٣٢٣).

﴿فاصبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ(٣٩) وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ(٤٠) وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ(٤١) يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ(٤٢) إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ(٤٣) يَوْمَ تَشَقَّقُ الأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ(٤٤) نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ(٤٥)﴾

المقصد الرابع

تثبيت النبي ﷺ وتسليته عما يلاقي من تكذيب الكافرين ولجاجتهم

هذه الآيات "تفريع على ما تقدم من قوله: ﴿بَلْ عَجِبُوا أَن جَاءهُمْ مُنذِرٌ﴾ الآيات، ومناسبة وقعه هذا الموقع ما تضمنه قوله: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِن قَرْنٍ﴾ الآية من التعريض بتسلية النبي ﷺ أي: فاصبر على ما يقول المشركون من التكذيب بما أخبرهم من البعث وبالرسالة، وقد جمع ذلك كله الموصول وهو: ﴿عَلَى مَا يَقُولُونَ﴾.

وضمير ﴿يَقُولُونَ﴾ عائد إلى المشركين الذين هم المقصود من هذه المواعظ والنذر ابتداء من قوله ﴿بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ﴾"[٧٢].

أولا: تحقق المطابقة على المستوى المعجمي:

﴿وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾: عبر بالمسّ لأنه أقل ما يتصور وهو دون الإصابة بكثير، والمقصود هو نفي أدنى شيء من التعب واللغوب، ولا يتحقق ذلك بلفظ آخر دون لفظ المسّ الذي جاء منفيًا، لأن المسّ والمماساة هي: محاذاة الشيء دون إصابته والتوغل فيه فهي كاللمس[٧٣] غير أن اللمس يكون "بوضع اليد على شيء وضعًا غير شديد بخلاف الدفع واللطم"[٧٤].

---

(٧٢) التحرير والتنوير (٢٦/٣٢٦).

(٧٣) المحكم (٨/٤٣٠).

(٧٤) التحرير والتنوير (٣/٣٢٦).

و"اللغوب: الإعياء، وقرئ بالفتح بزنة القبول والولوع، قيل: نزلت في اليهود –لُعِنَتْ– تكذيبًا لقولهم: خلق الله السماوات والأرض في ستة أيام، أولها الأحد، وآخرها الجمعة، واستراح يوم السبت، واستلقى على العرش"[75].

واستعمال مادة (لغب) يدور حول التعب والإعياء بعد فعل شيء من سير ونحوه[76].

﴿ومن الليل﴾ "من في قوله تعالى **﴿ومن الليل﴾** يحتمل وجهين:

أحدهما: أن يكون لابتداء الغاية، أي: من أول الليل فسبحه، وعلى هذا فلم يذكر لها غاية لاختلاف ذلك بغلبة النوم وعدمها، يقال: أنا من الليل أنتظرك.

ثانيهما: أن يكون للتبعيض، أي: اصرف من الليل طرفا إلى التسبيح، يقال من مالك امنع[77]، ومن الليل انتبه، أي: بعضه"[78].

﴿وَأَدْبَارَ السُّجُودِ﴾: "التسبيح في آثار الصلوات، والسجود والركوع يعبر بهما عن الصلاة. وقيل: النوافل بعد المكتوبات. وعن علي –رضي الله عنه: الركعتان بعد المغرب. وروي عن النبي ﷺ: **"من صلى بعد المغرب قبل أن يتكلم كتبت صلاته في عليين"**[79] وعن ابن عباس –رضي الله عنهما–: الوتر بعد العشاء. والأدبار: جمع دبر. وقرئ: "وأدبار" من أدبرت الصلاة إذا انقضت وتمت. ومعناه: ووقت انقضاء السجود، كقولهم: آتيك خفوق النجم"[80].

---

(75) الزمخشري: الكشاف (٥/٦٠٥) ط مكتبة العبيكان.

(76) المحكم (٥/٥٣٣)، وانظر لسان العرب: مادة (لغب).

(77) كذا بالأصل ولعلها تصحيف: امنح.

(78) مفاتيح الغيب (١٤/٤٧٣).

(79) أخرجه ابن نصر المروزي في قيام الليل (ص٢٤) عن مكحول به مرسلا وقد روي موصولا من حديث أنس وعائشة –رضي الله عنهما– وانظر الزيلعي في "نصب الراية" (٣/٣٥٩).

(80) الكشاف (٥/٦٠٥-٦٠٦) ط مكتبة العبيكان.

ودبر الشيء هو: آخره المتصل به، ومن هنا يأتي اختيار هذه الكلمة سواء في قراءة (أدبار) جمع (دبر) أم في قراءة (إدبار) على المصدر للدلالة على الفورية في وصل النافلة بالفريضة، والإتيان بالصلاة عقب الصلاة، ويشمل ذلك أيضًا الإتيان بالتسبيح بعدها على عمومه وقد ورد ذلك عن ابن عباس قال: "هو التسبيح بعد الصلاة)(٨١).

وهذا كله يستفاد منه حث العبد على مداومة العبادة والتسبيح والتتريه لله تعالى فلا يكل لسانه من ذكر الله تعالى واللهج به والتعلق به، وإتيان العبد بالتسبيح أو الصلاة بعد الصلاة يظهره أمام ربه في هذه الصورة، صورة من لا يمل من عبادته وطاعته.

﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ﴾(٨٢): سميت النفخة بالصيحة للدلالة على ما فيها من قوة وإفزاع وتنبيه للخلق.

وتعليقها (بِالْحَقِّ): أي مكتسبة به، أو الباء للتعدية أي جاءت بالحق الذي لا مرية فيه وهو البعث الذي يكذب به هؤلاء الكافرون، وناسب وصف هذا البعث في ختام السورة (بِالْحَقِّ) بعد ذكر تكذيب الكافرين في أول السورة وعدهم إياه باطلا، وتعجبهم منه.

---

(٨١) انظر تفسير ابن كثير (٤/٢٣٠،٢٢٩).

(٨٢) "الصياح: الصوت، وفي التهذيب: كل شيء إذا اشتد، وصيَّح: صوَّت بأقصى طاقته، يكون ذلك في الناس وغيرهم. والصيحة: العذاب. والصائحة: صيحة المناحة. وتصيَّح البقل والخشب والشعر ونحو ذلك: تشقق وييس. وتصيَّح الشيء: تكسر وتشقق".[انظر لسان العرب: مادة (صيح)]

ثانيًا : تحقق المطابقة على المستوى الصوتي: من المظاهر الصوتية اللافتة في هذه الآيات الأخيرة استمرار انتهاء فواصل الآيات بحروف القلقلة الانفجارية المجهورة التي تفزع القلوب وتزعجها من غفلتها.

-ولم تخالف الآيات في هذه الظاهرة إلا في موضعين يتعلقان بالبعث والحشر. وهما قوله تعالى:

﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ﴾: وقوله تعالى: **﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ الأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾**.

والموضع الأول وهو الفاصلة التي تمثلها كلمة (المصير) ينتهي بحرف الراء وهو حرف يتسم بسمة التكرارية عند النطق به، وهو ما يناسب التكرارية التي تعبر عنها هذه الفاصلة وهي تكرارية الحياة بعد الموت والبعث والرجوع إلى الله تعالى.

وكذلك الفاصلة الثانية (يسير) إنما تتعلق بيسر الحشر أتى يسر التكرار والإعادة فناسب انتهاؤها بالراء ذات السمة التكرارية كذلك. والله أعلم.

ثالثًا ورابعًا: تحقق المطابقة على المستوى الصرفي والنحوي:

لما كان الغرض من هذه الآيات تسلية النبي ﷺ وتثبيته لذا تكررت فيه الأوامر المتعلقة بهذا الغرض نحو:

﴿فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ﴾

﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾

﴿وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ﴾

فالغرض من الأمر بالصبر واضح في تسلية النبي ﷺ وتثبيته.

والأمر بالتسبيح الغرض منه ربط القلب بالله تعالى والانشغال بذكره عما

سواه، والركون إليه والثقة به، وقيل المراد به الصلاة، وأيا ما كان فالتسبيح والصلاة خير ما يجلي الصدور ويذهب الهموم والغموم.

والأمر بالاستماع يوم ينادي المنادي وهو النداء للحشر وبعث الخلائق وجمعهم ليوم لا ريب فيه، إنما هو خير تسلية للنبي ﷺ وتهوين أمر الكافرين لديه؛ فإن لهم يومًا لا ريب فيه، يرجعون فيه إلى الله فيحاسبهم على عنادهم ولجاجتهم.

﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ﴾:جاء الخبر مؤكدًا بإن والجملة الاسمية مع ما فيه من التخصيص لتأكيد البعث وإثباته وأنه هين على العزيز القدير، لأن الأمر مختص به راجع إليه بما لديه من قدرة مطلقة يقول _للشيء: كن فيكون.

﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾ هذا خبر خرج عن حقيقة الإخبار إلى غرض الوعيد والتهديد والتسلية فهو: "وعيد محض للكفار، وتهديد لهم، وتسلية للرسول _ صلى الله عليه وسلم"[٨٣].

﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾: اختتمت الآيات بهذا الأمر الرباني الذي يحصر وظيفة النبي ﷺ في التذكير بالقرآن لمن يخاف وعيد ربه ولقائه، وفي هذا كله تخفيف على النبي ﷺ وتهوين عليه، حيث وضع عنه أوزارًا ثقيلة كان يحملها النبي ﷺ، فقد كان كما أخبر القرآن عنه يكاد يقتل نفسه من الأسى ألا يكونوا مؤمنين، كما في قوله تعالى **﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾**[الشعراء:٣]، وكذا قوله تعالى: **﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾**[الكهف:٦]

فخفف الله تعالى عن نبيه حيث حصر مهمته في التذكير، وأخبره أنه ليس عليه هداهم ولكن الله يهدي من يشاء.

---

(٨٣) البحر المحيط (١٢٩/٨) وانظر الكشاف (٦٠٧/٥).

وبهذه الآية الكريمة تختتم السورة ختامًا يتسق مع المقصد الأساسي لها وهو مقصد التذكير وإيقاظ القلوب، وتذكير الناس باليوم الذي يرجعون فيه إلى الله، فيحاسبهم على أعمالهم؛ لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكرا.

الخاتمة

لقد طوف البحث حول ما عنّ له وظهر من السمات الأسلوبية الواضحة لهذه السورة المكية العظيمة، ومعلوم أن السور المكية إنما تخاطب كثرة كاثرة من المشركين وقلة قليلة من المؤمنين، وهي تحاول زعزعة هؤلاء المشركين عن عقائدهم الباطلة التي يستميتون في الدفاع عنها والسخرية بكل ما خالفها، كما تحاول في الوقت نفسه تثبيت دعائم الإيمان في قلوب هذه القلة من الموحدين المؤمنين. وفي سبيل تحقيق هذا الغرض اتسمت السورة بسمات أسلوبية عامة تناسب تحقيق ذلك الغرض.

أولاً: على المستوى المعجمي: تم اختيار الكلمات التي توحي بجو البعث والنشور وتنقل المرء إلى استيحاء الدار الآخرة واستجلاء صورها بدءاً من ساعة الاحتضار والنزع إلى لحظة القرار في الجنة أو الجحيم.

ومن هنا نجد الكلمات والجمل الموحية بهذه النقلة مثل: (متنا – كنا ترابا – ما تنقص الأرض منهم – الخروج – خلق جديد – جاءت سكرة الموت بالحق – نفخ في الصور – ذلك يوم الوعيد – جاءت كل نفس – هذا ما لديّ عتيد – ألقيا في جهنم – يوم نقول لجهنم هل امتلأت – وأزلفت الجنة للمتقين- ادخلوها بسلام – واستمع يوم ينادي المناد – يوم يسمعون الصيحة بالحق – ذلك يوم الخروج – إنا نحن نحي ونميت وإلينا المصير – يوم تشقق الأرض عنهم سراعا – ذلك حشر علينا يسير... إلخ).

وقد وقفنا أمام الدلالات المعجمية لهذه الكلمات وغيرها مما يكشف عن مواءمتها لمعاني السورة ومقاصدها الكلية والجزئية.

ثانيا: على المستوى الصوتي: استطاعت السورة الكريمة أن توظف إيقاع الفواصل، ومدود الكلمات والجمل ورءوس الآي لأجل تحقيق أغراضها المتنوعة مثل:

١-انتهاء الفواصل بحروف القلقلة معبرة عن تقلقل المشركين واضطرابهم

في عقيدتهم فهم كما وصفتهم السورة (في أمر مريج).

٢-التناسب بين الحروف المجهورة الشديدة المفخمة والمقلقلة وبين أهوال القيامة العظيمة التي لا تخلو من هزة وزلزلة وشدّة متناهية.

٣-تشتمل الآيات على كثير من المدود التي تجعل السياق رخيًّا ممتدًا بعيد المدى مما يناسب مقصود السورة في هذا المقطع وهو الدعوة إلى التأمل في صحفة الكون، والتماس أدلة قدرة القادر المقتدر في أرجاء هذا الكون الفسيح، ومن ثم تكثر المدود الطبيعية والزائدة في أغلب كلمات الفقرة مثل (ينظروا – إلى – السماء بنيناها – زيناها – مالها – فروج – مددناها – ألقينا – فيها – رواسي – أنبتنا – فيها – بهيج – ذكرى – منيب – نزلنا – السماء – ماء – مباركا – فأنبتنا – جنات – الحصيد – باسقات – لها – نضيد – رزقا – للعباد – أحيينا – ميتا – الخروج).

٤-قصر الفواصل وسرعتها في بعض مقاطع السورة بما يناسب جو الترهيب كما في المقطع الثالث.

٥-توظيف الفواصل بحيث تتحد الفواصل أو تتعدد بحسب توحد الفكرة أو اختلافها وتعددها، وذلك كما في الآيات من (٦) ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ إلى (١١) ﴿رِزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ الْخُرُوجُ﴾. حيث اتحدت الفكرة في الآيتين بينما استقلت الآيات التي بينهما بفاصلة أخرى وقد بينا في ثنايا البحث علة ذلك.

٦-التناسب الصوتي في كل فكرة من أفكار السورة بين الدلالة الصوتية التي يوحي بها التركيب الصوتي للكلمة القرآنية، وبين الفكرة التي تعبر عنها الآيات، على نحو ما بيناه في ثنايا البحث في كثير من كلمات هذه السورة الكريمة.

٧-حاول البحث أن يجلي الدلالة الصوتية فيما اتضح له من الكلمات

القرآنية ولكن يبقى بعد ذلك من الناحية الصوتية:

أ-خلو السورة من الكلمات الناشزة أو المتنافرة من الناحية الصوتية.

ب-ارتياح السمع والنفس لكلمات السورة وأصواتها وجرسها.

جـ- الشعور بعذوبة الصوت، وحلاوة الجرس في كل كلمة من كلمات السورة وإن عجز البيان عن كشف علته، أو استجلاء سره، واستكناه حقيقته.

ثالثا: على المستوى الصرفي:

١-تم التناسق والتناسب بين الصيغ المختارة من العديد من الخيارات الصرفية المطروحة وبين أفكار السورة في كل فقرة من فقراتها، بما يحقق الاختيار الأسلوبي الموفق، وقد كشف البحث عن مدى الملاءمة بين الكثير من الصيغ والمعاني الدالة عليها.

٢-بقيت هناك صيغ كثيرة لم يقف البحث عندها بالتحليل ولكنها في الوقت نفسه - تتسم بالتناسق والتناغم مع جوّ السورة وسياقها اللفظي والمعنوي، وذلك لأن السمع يستحليها ولا يمجها، بل ترتاح لها النفس، ويأنس بها القلب، وتشنف لها الأذن.

رابعًا: على المستوى النحوي (النظم وعلم المعاني):

١) زواجت الجمل بين الطول والقصر بحسب اختلاف أغراض السورة وتنزعها بين الترغيب والترهيب وقصّ أحوال الأمم السابقة وغير ذلك.

٢) يتنوع التركيب النحوي في السورة بحسب الأفكار التي تعبر السورة عنها بين الجمل الاسمية والفعلية، والتقديم والتأخير، والذكر، والحذف، والتكرار، وأسلوب التوكيد، وأسلوب القسم وغير ذلك من التراكيب والأساليب النحوية المتعددة.

خامساً: على مستوى التصوير البياني:

تتناثر الصور البيانية من خلال مشاهد السورة المختلفة، وقد أبرزها البحث من خلال الدلالة المعجمية تارة، أو التركيب النحوي تارة أخرى، وكشف البحث عن تناغمها مع جو السورة ومشاهدها دون شيء من التكلف أو المبالغة أو محاولة حشر الصور والزج بها بما قد يتنافر مع الصورة الكلية التي رسمتها السورة بوسائالها التعبيرية المتعددة والمتنوعة.

سادسًا: على مستوى الفنون البديعية:

اشتملت السورة كذلك على ما يوائم مقاصدها من الفنون البديعية لا سيما فن التذييل، حيث ذيلت كل آية بفاصلة مناسبة لمعانيها ودقائقها الفنية.

وقد جاءت الفنون البديعية في هذه السورة قليلة ولكنها موظفة توظيفاً رائعاً يناسب طبيعة السورة وسياقها، بلا تكلف ممقوت، وليس على سبيل الزينة الزخرفية الزائدة التي تمثل عبئاً على الصورة الكلية التي رسمتها السورة بوسائلها المتعددة.

ونستطيع أن نقول: إن وضوح الصورة الفنية من خلال الوسائل التعبيرية المتعددة هو الذي أغنى عن الإكثار من الصور البديعية كما أغنى عن الإكثار من الصور البيانية كذلك.

وقد كشف البحث عن بعض هذه الصور من خلال ما حملت عليه من مستويات الدلالة المعجمية أو النحوية أو غير ذلك.

وغني عن البيان أن نقرر بعد ذلك أن السورة قد بلغت حد الإعجاز المذهل للعقول في توظيف تلك الوسائل التعبيرية المتعددة للتعبير عن أفكارها فهذه طبيعة النسق القرآني المجيد الذي نزل من لدن حكيم حميد.

فهرس الآيات القرآنية

أهم المصادر والمراجع

١- **الألوسي (شهاب الدين السيد محمود)**: روح المعاني - ط دار إحياء التراث.

٢- **أبو حيان الأندلسي (محمد بن يوسف)**: البحر المحيط - مطبعة السعادة - مصر - ١٣٢٨هـ.

٣- **الجلالين (السيوطي والمحلي)**: تفسيرهما - ط دار المعرفة - بيروت.

٤- **الرازي (فخر الدين محمد بن عمر)**: تفسيره مفاتيح الغيب - ط دار الفكر العربي.

٥- **الراغب الأصفهاني (أبو القاسم الحسين بن محمد)**: المفردات - ط دار المعرفة - بيروت.

٦- **الزمخشري**: الكشاف - ط دار الكتب العلمية - بيروت.

٧- **السمين الحلبي (أبو العباس بن يوسف بن محمد بن إبراهيم)**: الدر المصون في علوم الكتاب المكنون ط دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان - تحقيق على محمد معوض ورفاقه.

٨- **سيد قطب**: الظلال - ط دار الشروق.

٩- **ابن سيده (على بن إسماعيل)**: المحكم والمحيط الأعظم ط دار الكتب العلمية - بيروت- لبنان -وتحقيق د/ عبد الحميد هنداوي.

١٠- **الطاهر بن عاشور**: التحرير والتنوير - ط الدار التونسية للنشر.

١١- **الطيبي (الحسين بن عبد الله بن محمد)**: التبيان في المعاني والبيان - ط المكتبة التجارية - مكة المكرمة - تحقيق د/عبد الحميد هنداوي.

١٢- **عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي**: تفسير النسفي - ط دار إحياء الكتب العربية.

١٣- **عبد الحميد هنداوي**: أضواء على مسيرة البلاغة العربية.

١٤- **عبد الحميد الهنداوي**: الإعجاز الصوتي للقرآن الكريم (دراسة نظرية تطبيقية) - ط المكتبة العصرية.

١٥- **ابن عطية (أبو محمد عبد الحق غالب)**: المحرر الوجيز - تحقيق على عوض

وزميله - دار الكتب العلمية.

١٦- **القرطبي (أبو عبدالله محمد بن أحمد)**: الجامع لأحكام القرآن ط دار الريان.

١٧- **ابن كثير (إسماعيل بن كثير القرشي)**: تفسيره - المكتبة التوفيقية - الأزهر الشريف.

١٨- **محمد الأمين بن محمد المختار الجكني الشنقيطي**: أضواء البيان - ط دار الكتب العلمية.

١٩- **محمد بن على بن محمد الشوكاني**: فتح القدير - ط دار المعرفة.

٢٠- **مختار الصحاح**: ط المعرفة - بيروت.

٢١- **معجم الوسيط**: ط مجمع اللغة العربية.

٢٢- **ابن منظور**: لسان العرب - ط دار المعارف- القاهرة.

فهرس الموضوعات